الداعي

مجلة عربية إسلامية شهرية

تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم ديوبند ، يوبي ، الهند

ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ (القرآن الحكيم)

ISSN 2347-8950

العـــدد : ١١ ، السنـــة : ٤٨

ذوالقعدة ١٤٤٥هـ ، مايو – يونيو ٢٠٢٤م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني

رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت

Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي

دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)

الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor

AL – DAIE

Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- حب الدنيا رأس كل خطيئة — التحرير — ٣

كلمة العدد

- الإيمان الكامل هو الذي يعطي ثماره المرجوّة — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكـر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- القرآن والنفس البشرية — الأستاذ الشيخ علي حسن العماري — ١٤
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ١٧
- الذين يسعون إلى الهلاك والدمار — الدكتور عمر سليمان الأشقر — ٢٢
- آفة البحث العلمي عند الغربيين وأشياعهم — الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي — ٢٦
- إعجاز القرآن الكريم — الدكتور محمد حسين الذهبي — ٣٢
- الشخصيَّة الإسلاميّة في معركة إثبات الذات — الأستاذ محمود مهدي الإستامبولي — ٣٩
- سماحة حاكم وتعفف عالم — الدكتور عبد الرحمن عميرة — ٤٤
- العمرة — الأستاذ الشيخ محمد محمد الشرقاوي — ٤٦
- تطور القضاء عند العرب — الأستاذ محمد شمس الدين — ٤٩

إشـراقـــة

- غرور المنصب — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

حب الدنيا رأس كل خطيئة

تسربت وتتسرب إلى المجتمع الإسلامي أنواع من الأمراض الفتاكة، وصور من الخطايا و معاصي الله تعالى، مما يفتَّ في عضده، وينخره من الداخل. ومن أفدح هذه الأمرا ض و الخطايا حب الدنيا، الذي يعتبره الأثر «أصل الداء و رأس كل خطيئة». والناظر في أحوال المسلمين اليوم يجد بوضوح أن أمراضًا كثيرةً نتجت عن حبهم للدنيا تطاردهم حيث كانوا، و تحدق بهم من كل جانب.

وإذا كان حب الدنيا رأسًا لكل داء فما علاقته بالأمراض الأخرى حتى عُدَّ أصل الأدواء؟ فإن المعاصي التي يقترفها الإنسان وجدناها – إذا أمعنا النظر فيها – ترجع إلى حب الدنيا، فترك الصلاة – مثلا- معصية وداء وبيل ابتلي به كثير من المسلمين؛ فمن استولى على قلبه حب الدنيا، وطغى عليه، واستهوته ورضي بها، واطمأن إليها، ونسي الآخرة وغفل عنها، ونسي الله تعالى فأنساه الله نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩]، وقال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢].

فإن الذي يستهويه الدنيا ويحبها تلهيه عن الآخرة، فلايهتم بها، ولايقبل على طاعة الله تعالى وما يرضيه سبحانه و تعالى، ولايجتنب السيئات وما يسبب غضبه سبحانه تعالى وسخطه، فيفيض في المعاصي والجرائم. فهمّه الأكبر طلب الشهرة المطبقة للآفاق، والجاه العريض و المنصب المرموق، ولو على حساب الدين والفضيلة، ولو أنه أهمه آخرته، و وضع أحداثها و أهوالها في الحسبان، وأيقن يقينًا جازمًا بأنه يلاقي ربه، ويُسأل عن كل صغيرة وكبيرة أتاها في الحياة الدنيا، وأنه لايزول قدماه يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» [الترمذي:٢٤١٧]؛ فإن نفسه لن تسول له الإقدام على المعصية، والولوغ في القاذورات، ويحسب لها ألف حساب.

وحب الدنيا يتفاوت من شخص إلى آخر، فمنهم من يوغل في حبها، ويشتد ولعه بها، و منهم دون ذلك، وبقدر ذلك يبتعد المرء عن الدين وشرائعه. فمن كان شديدًا و متناهيًا في حب الدنيا كان أبعد عن الدين وأوامره وأحكامه، وهم الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان:٢٧]. و ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠].

«اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا» [الترمذي:٣٥٠٢]. [التحرير]

(تحريرا في الساعة العاشرة صباحا من يوم الاثنين: ١٤/رمضان ١٤٤٥هـ=٢٥/مارس ٢٠٢٤م).

الإيمان الكامل هو الذي يعطي ثماره المرجوّة

يشتغل المرء على جهاز المحمول، وهو على ما يرام، وثم يصيبه عطل وخلل، فيتوقف عن عمله، فيحمله إلى المهندس المختص، فيقول بعد أن يمعن النظر في قطعه: إن القطعة الفلانية قد فسدت وخربت، فلابد من تغييرها واستبدالها، حتى يعود إلى حالته الطبيعية. وهذه القطعة قد تكون صغيرة جدا، وربما لايلقي الناظر إليها بالًا بادئ الرأي، ولكن اشتغال المحمول على حالته الطبيعية يتطلب إصلاحها إذا أصابها خلل أو استبدالها إن فسدت.

وقِس عليه الجوال وغيره من الأجهزة الإلكترونية وغير الإلكترونية تحوي كثيرا من القطع الصغيرة والكبيرة، وإن اختلال أصغر القطع- مهما هان في عين الناظر- منها يتوقف باختلالها الجهاز عن العمل. فصلاح جميع قطعها لا محيص عنه ليشتغل الجهاز ويعطي فوائده المرجوة، و يحقق أهدافه المطلوبة. ولايقول المرء عند فساد أتفه القطع في بادئ الرأي: ما للجهاز لايشتغل ولم يختل منها إلا قطعةٌ صغيرة؟ وكيف لايستغني الجهاز عن هذه القطعة التافهة؟ ولم يحتاج إلى تكامل أجزائه وقطعه؟.... ذلك لأننا تعودنا مشاهدة توقف الجهاز عن العمل عند فساد أتفه القطع، ولم يعد لنا فيه غرابة أو استغراب أو استحالة.

نرى المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها يزدادون ذلًا وهوانًا وسقوطًا في أعين الناس، رغم امتثالهم لبعض أحكام الدين: أوامره ونواهيه، فيقولون: ما لنا يصيبنا هذه الفظائع ونتعرض للأحداث الماسأوية من حين لآخر، رغم أننا مؤمنون، نؤمن بما كان يؤمن به السلف الصالح من هذه الأمة، فقادوا الأمم وبنوا الدول، وأسسوا الحضارات، وفتحوا البلاد شرقًا وغربًا؟ وما لإيماننا لايعطي المفعول المطلوب، والتأثير المرجو؟

إن كثيرًا منا – يا سادة- نؤمن إيمانًا مجزأً غير كامل، نؤمن ببعض الأحكام الشرعية و نمتثلها في حين نتخلف عن بعضها، ونجعله وراءنا ظهريا في واقع حياتنا، فهذا الإيمان المجزأ و الإسلام المفتت لا ولن يغني من جوع، ولن يؤتي ثمرته المطلوبة التي أعطى على عهد السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم، شأنه في ذلك شأن الجهاز المختل لفقد قطعة صغيرة منها صلاحيتها ومفعولها.

ما أكثر المسلمين الذين جزؤوا الدين وفتتوه، فجعلوا بعضه ضروريًا يجب الأخذ والعمل، والبعض الآخر اعتبروه من فروع الدين وأجزائه التي يستغنون عنها. فمنهم من اختصر العقائد و ظن أن مجرد النطق أو الاعتراف بكلمة الشهادة فيه

كفايــة لهــم، دون الحاجــة إلى العمــل بمقتــضاه ومتطلباته. وهؤلاء مثلهم كمثل رجل يقبل المرأة في عقد النكاح، فإذا طولب بنفقتها قال: إنما قبلت المرأة دون نفقتها. أفليس كل من يسمعه يستهزئ به ويسفه حلمه، ويستنكر عليه؟ فهؤلاء اختصروا العقائد ولوازمها ومتطلباتها.

ومنهم قوم اختصروا الأعمال، فأخذوا من أحكام الدين وأعماله ما هان عليهم واستسهلته نفوسهم، وتركوا منها ما استصعبوه، وشق على نفوسهم، ولم يرضَ هواهم بالتقيد به. وهؤلاء نوعين: نوع يستسهلون العبادات البدنية، ويستصعبون العبادات المالية. فتجدهم يكثرون من الأولى فإذا جاء دور الإنفاق في سبيل الله، ومد يد العون والمساعدة إلى بائس وفقير، وحَمْلِ الكل، والإعانة على نوائب الحق، ومسح دموع المتضررين من النكبات والويلات والأحداث التي تأكل الأبيض والأخضر، بخلوا وأمسكوا وغلوا أيديهم.

وقوم آخرون يهون عليهم إنفاق المال، فتراهم يحجون ويؤدون الزكوات والصدقات، وأما العبادات البدنية من صوم وصلاة فتعود عليهم كأبوسًا يفرون من ظله، فيتسللون من الصلاة والصوم بأتفه الأسباب وأبسط العلل التي هي أهون من بيت العنكبوت.

وفئة ثالثة يؤتون ما آتوا، وينفقون ما أنفقوا، وامتثلوا الطاعات الظاهرة وأوفوها حقها من العناية والاهتمام، وأما الطاعات القلبية فلا يملكون منها إلا فتيلًا. فتجد قلوبهم منطوية على الرذائل الباطنية ومساوئ الأخلاق من الكبر والحقد والضغينة والحسد والعجب والرياء والمباهاة والمماراة ونحو ذلك من الأمراض الروحية.

وما لم يستجمع الإيمان شروطه وأجزاءه ومقوماته كلها، وما لم يتكامل إسلام المرء ودينه، لن يعطي ثمرته المرجوة. ومقومات الدين تتوزع على خمسة:

الأول: العقائد أي الإقرار بالقلب واللسان بأن الحق ما أخبر به الله تعالى ورسوله وعلى ما أخبرا به.

والثاني: العبادات: أي الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك.

والثالث: المعاملات، أي أحكام النكاح والطلاق والحدود والكفارات والبيع والشراء و الإجارة والزراعة ونحوها. ومعنى كونها من مقومات الدين أن الشرع ينهى عن الظلم والاعتداء على أحد، ويأمر بالحذر الشديد من معاملة تؤدي إلى الخلاف والنزاع، أي بيان ما يجوز وما لايجوز.

الرابع: المعاشرة: أي آداب الجلوس والقعود ومخالطة الناس، وقرى الضيف، وزيارة الناس، وكيف يعامل الأزواج والأولاد والأجانب والخدم ونحو ذلك.

الخامس: إصلاح النفس والتغلب على أهوائها ومكرها ودهائها وخداعها.

فهذه الأمور الخمسة هي مقومات الدين. فالدين

عبارة عن مجموع هؤلاء المقومات، فإن اختل مقوم منها اختل الدين بقدره، كمثل رجل فقد يده؛ فإنه رجل ناقص الخلقة بقدر ذلك» (خطبات حكيم الأمة ٩٨/٣ ما بعدها بتصرف يسير).

ويشير كثير من نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي إلى ضرورة هذا التكامل في الإيمان واتباع وامتثال جميع أوامره ونواحيه حتمًا غير مفوض ذلك إلى رأي المرء يختار من هذه الأحكام ما رضيت به نفسه، وحقق له ما ترنو إليه نفسه، ويترك منها ما عارض هوى نفسه. يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة:٢٠٨)].

قال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره:

والصواب في ذلك عندي أن يقال: إن الله جل ثناؤه أمر الذين آمنوا بالدخول في العمل بشرائع الإسلام كلها، وقد يدخل في (الذين آمنوا) المصدقون بمحمد ﷺ، وبما جاء به، والمصدقون بشرائع من قبله من الأنبياء والرسل، وما جاؤوا به، وقد دعا الله عز وجل كلا الفريقين إلى العمل بشرائع الإسلام وحدوده، والمحافظة على فرائضه التي فرضها، ونهاهم عن تضييع شيء من ذلك، فالآية عامة لكل من شمله اسم (الذين آمنوا)، فلا وجه لخصوص بها دون خصوص.. وعن مجاهد قال: ادخلوا في الإسلام كافة ادخلوا في الأعمال كافة».

وقال الطبري في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾:

«يعني جل ثناؤه بذلك: اعملوا أيها المؤمنون بشرائع الإسلام كلها، وادخلوا في التصديق به قولا وعملا ودعوا طرائق الشيطان وآثاره أن تتبعوها؛ فإنه لكم عدو مبين لكم عداوته. وطريقُ الشيطان الذي نهاهم أن يتبعوه هو ما خالف حكم الإسلام وشرائعه، ومنه تسبيت السبت وسائر سنن أهل الملل التي تخالف ملة الإسلام».

وقال ابن عاشور في تفسير قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

«تحذير مما يصدهم عن الدخول في السلم المأمور به بطريق النهي، عن خلاف المأمور به، وفائدته التنبيه على أن ما يصد عن الدخول في السلم هو من مسالك الشيطان المعروف بأنه لا يشير بالخير، فهذا النهي إما أخص من المأمور به مع بيان علة الأمر إن كان المراد بالسلم غير شعب الإسلام مثل أن يكون إشارة إلى ما خامر نفوس جمهورهم من كراهية إعطاء الدنية للمشركين بصلح الحديبية كما قال عمر: «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل فلم نعطي الدنية في ديننا»؟ وكما قال سهل بن حنيف يوم صفين: «أيها الناس، اتهموا الرأي؛ فلقد رأيتنا يوم أبي جندل ولو نستطيع أن نرد على رسول الله فعله لفعلنا والله ورسوله أعلم» بإعلامهم أن ما فعله رسول الله لا يكون إلا خيرًا، كما قال أبو بكر لعمر: إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا تنبيهًا لهم

على أن ما خامر نفوسهم من كراهية الصلح هو من وساوس الشيطان، وإما لمجرد بيان علة الأمر بالدخول في السلم إن كان المراد بالسلم شعب الإسلام، والكلام على معنى: لا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين، وما فيه من الاستعارة تقدم عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة:١٦٨] الآية.

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (ادخلوا في السلم كافة):

«يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله: أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك»(تفسير الآية).

ويقول الشيخ شبير أحمد العثماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية:

«يقول الله تعالى في هذه الآية: اقبلوا الإسلام كاملا غير منقوص، أي لاتتبعوا إلا الإسلام في الظاهر والباطن، والعقيدة والعمل، لا أن تأخذوا حكمًا من الأحكام بإملاء من عقولكم أو أحد من الناس، والقصد منه استئصال البدعة؛ فإن حقيقة البدعة: استحسان عقيدة أو عمل لهوى في النفس، واعتباره من الدين، فمثلا الصلاة والصوم من أفضل العبادات، فإن التزم شيئًا منهما من عند نفسه دون أمر من الشريعة كالتطوع يوم العيد في المصلى، أو صوم ألف يوم مثلا كان ذلك بدعة في الدين. وحاصل الآيات أن أخلصوا إيمانكم، واجتنبوا البدع. وأسلم بعض اليهود وأرادوا أن يجمعوا بين أحكام الإسلام وأحكام التوراة كتعظيم يوم السبت أو تحريم لحم الإبل وحليبها، وقراءة التوراة، فنزلت هذه الآية فسدّ كل طريق إلى البدع».

والإيمان الذي يعطي ثماره ونتائجه المرجوة والمطلوبة هو الإيمان المتكامل بجميع أجزائه ومقوماته. فلا بد من الأخذ بالإسلام بجميع أوامره ونواهيه دون الاكتفاء ببعض دون بعض. ويجب فهم حقيقة الإيمان والإسلام على هذا الوجه. ويخطئ كثير من المسلمين اليوم فهم حقيقة الإسلام على غير وجهه. فكما استخرج علماء الطبيعة روح الدواء، وجوهره، كذلك يرغب كثير من المسلمين في استخراج روح الإسلام، ثم أدخلوا ما شاء لهم الهوى من عند أنفسهم، و قالوا: هذا هو الإسلام وروحه وجوهره زعما منهم أن في الإسلام فضولًا لايحتاج إليه المرء في دينه وإسلامه، فيجب إبعاده وإبقاء ما يلزم بقاؤه. وهذا منهم جهل صريح بطبيعة الإسلام وروحه وحقيقته في الواقع؛ فإن الإسلام كله روح وجوهر وأصل وليس فيه شيء زائد عن الحاجة والضرورة يمكن إخراجه واستبعاده من حقيقة الدين.

قال ابن عطية: وقال عكرمة: «بل المخاطب من آمن بالنبي من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وغيره». وذلك أنهم ذهبوا إلى تعظيم يوم السبت وكرهوا لحم الجمل وأرادوا استعمال شيء من أحكام التوراة وخلط ذلك بالإسلام، فنزلت هذه الآية

فيهم، ف(كَافَّةً) على هذا لأجزاء الشرع فقط.

وقال الواحدي في تفسير الآية:

«﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ أَيْ: في الإسلام ﴿كَآفَّةَ﴾ أيْ: جميعًا أيْ: في جميع شرائعه نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه وذلك أنَّهم بعدما دخلوا في الإسلام عظَّموا السَّبت وكرهوا لُحمان الإبل فأُمروا بترك ذلك. وإنَّه ليس من شرائع الإسلام تحريم السَّبت وكراهة لحوم الإبل ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أيْ: آثاره ونزغاته ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾».

يقول التهانوي رحمه الله وهو يشرح ذلك:

«ليس شيء من أجزاء الإسلام ومقوماته ما يليق بالترك والتخلي عنه، فهذا عبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حدثته نفسه ذات يوم أن يتجنب أكل لحم الإبل، ظنًّا منه بأن الإمساك عن أكله لاينافي الإسلام، فليس الأكل منه فرضًا عليه، ثم إنه يجمع بذلك بين الإسلام وبين حكم التوراة. ولاضرر عليه في ذلك. فنزل قوله تعالى منكرًا عليه فعله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةَ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة:٢٠٨)]. أرأيت هل كان الإمساك عن تناول لحمان الإبل ركنًا أعظم للإسلام؟ ثم جاء الاستنكار الشديد على التقرب بترك أكله، فدل على أنه ليس شيء من أجزاء الإسلام يليق بالترك والإمساك عنه، فكيف يستبيح «عقلاء اليوم» استخراج الروح من الإسلام و شرائعه ونبذ ما وراء ذلك في ظنهم، والإسلام كله روح وجوهر، و ليس فيه شيء زائد وفضول يمكن الاستغناء عنه... ومن الناس من يقول: نحن في غنى عن إقام الصلاة؛ فإنها كانت على العرب الأبعدين عن الثقافة والحضارة، وقد أصبنا منها ما نفى عنا الوحشية، فيجب شطبها وحذفها – والعياذ بالله- من قائمة العبادات الإسلامية».

وأكد القرآن الكريم على ضرورة التكامل في الدين والأخذ بجميع أحكامه وشرائعه، فالإيمان ببعض والكفر ببعض ليس من الإسلام في شيء. وشنع على أهل الكتاب حين فعلوا ذلك فقال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

فتخلف المسلمين وانحطاطهم في أمر دينهم ليس سببه الإسلام؛ بل هو تخليهم عن مبادئ الإسلام وقوانينه وأوامره ونواهيه كاملة غير منقوصة ولامجزأة ولا مفتتة. ولو عاد المسلمون إلى الإسلام المتكامل- شأن سلفهم الصالح- في جميع شؤون حياتهم الدينية أو الدنيوية لنفضوا عن أنفسهم غبار التخلف عن مسايرة ركب الحياة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

* * *

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥

أي كما أظهرنا لإبراهيم شناعة عبادة الأصنام وقبحها، وأفحمنا قومه، كذلك أطلعناه على أعماق النظام التركيبي الأحكم والأغرب في العلويات والسفليات، ليراها ويستدل بها على وجود الله تعالى و وحدانيته وغيرهما، وكذلك على عجز ومحكومية السماوات والأرض، ويرد على وجه البصيرة - على عقيدة قومه بعبادة الكواكب وصنع الهياكل، وليفوز بدوره بالدرجة العليا من حق اليقين. ولاشك أن نظام العالم هذا الأكمل والأحكم والأحسن مما يضطر المرء ببداهة حين يراه إلى أن يقر بأن صانع هذا المصنع العظيم ومديره، وضابط أجزائه التركيبية بترتيب وسليقة محكمة، وحافظ هذا النظام على وتيرة واحدة منذ الآلاف؛ بل مئات الآلاف من السنين، حكيم وقدير وصانع عظيم، لايخرج جزء من أجزاء هذه الماكينة صغيرها وكبيرها من تصرفه الحكيم ونفوذه وقدرته. ولم يأت ذلك عن مجرد البخت والاتفاق، أو عن طبيعة لاشاعرة، أو مادة عمياء صماء. يقول الفلسفي الأوربي الشهير «نيوتن»: إن حركات الكواكب الحالية من غير الممكن أن تكون مجرد نتيجة فعل القوة الجاذبة، فإنها تدفع الكواكب إلى الشمس، فلابد ممن يحرك الكواكب حول الشمس وهي يد الله تعالى، الذي يقيمها على مداراتها رغم تجاذب القوة العامة الجاذبة. ولايسعنا أن نشير إلى سبب طبيعي حَبَسَ الكواكب كلها في فضاء مفتوح، بحيث تتحرك في مدار معين وفي جهة خاصة حين تجولها حول الشمس، ولايتخلف ذلك فيهم أبدًا. ثم ما لوحظ من التناسب الدقيق والتوازن العميق بين حركات الكواكب، ودرجات سرعتها، وبين الشمس من المسافة البينية، ليس وارءه سبب طبيعي، نرجع إليه هذه النواميس المنظمة والمحفوظة. فلايسعنا إلا الإقرار بأن هذا النظام برمّته، بيد حكيم عليم عظيم، عليم كل العلم بمواد هذه الأجرام السماوية، وكمياتها. فهو على علمٍ بما يصدر من القوة الجاذبة من أي مادة، وبالقدر الذي يصدر عنها. وهو الذي وضع بتقديره العظيم بين الكواكب والشمس مدارج المسافات المختلفة، والحركات المتنوعة بحيث لايتصادم ولايتزاحم بعضها مع بعض،

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

فيتمزق العالم ويهلك.

فما من كوكب صغير أو كبير، إلا ويطلع ويغرب في وقت معين بنظام محكم. وإذا غرب كوكب من الكواكب وحرم الدنيا فيضه وتأثيره الذي حصل عند طلوعه، لم يقدر الكوكب ولا غيره من الخلق على أن يعيده ولو لدقيقة واحدة، أو يوقف غروبه، وإنما ذلك إلى الله تعالى رب العالمين. فلايعجز عن إفاضة نوع من الأنواع، قال تعالى: (وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يٰس:٣٨-٤٠].

ومادام هذه حال العلويات فقِس عليها حال السفليات، فهذه العجائب التكوينية وملكوت السماوات والأرض التي رآها إبراهيم فانطلق لسانه بقوله: (لَآ أُحِبُّ الْآفِلِيْنَ) [الانعام:٧٦] وقوله: (اِنِّيْ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِيْ فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ حَنِيْفًا وَّمَآ اَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ) [الأنعام:٧٩] مما يأتي في الآية التالية، كما تدل عليه الفاء في قوله تعالى: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رَاٰ كَوْكَبًا قَالَ هٰذَا رَبِّيْ فَلَمَّآ اَفَلَ قَالَ لَآ اُحِبُّ الْآفِلِيْنَ) [الأنعام:٧٦].

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾

أي فأتخذه ربًّا لي. وهل يرضى أحد أن يقيم سجينا عاجزا مملوكا على سرير الملك؟ وأما قول إبراهيم: (هٰذَا رَبِّيْ) فكان في أسلوب الاستفهام الإنكاري. أي هل هذا ربي؟ أو بطريق التهكم والتبكيت، أي هذا ربي حسب عقيدتكم وظنكم؟ كما قال موسى عليه السلام: (وَانْظُرْ اِلٰى اِلٰهِكَ الَّذِيْ ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا) [٢٠طه:٩٧]: أَيْ فِيْ زَعْمِكَ. وللمفسرين أقوال أخرى في ذلك. وهذا هو الراجح عندنا. والله أعلم.

فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

القمر كوكب أحسن وألمع، وقد يؤخذ الإنسان بلمعانه ونوره ويفتن به إن لم يتداركه الله تعالى.

فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾

أي أكبر الكواكب في النظام الفلكي، وأكثرها نفعا وفائدة، وربما لايستغني شيء في العالم المادي عن الاستفادة منها والتأثر بها مباشرة أو بواسطة.

فائدة: فهؤلاء كلها مسخرة لله تعالى، تطلع في أوقاتها المحددة، وثم تغيب، ولاتقدر على التأخر والتقدم دقيقة واحدة، فما أكثر وقاحة واشمئزازا أن تُشرَكَ في حقوق الألوهية؟!

إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

أي معرضًا عن الخلق كله، آخذًا بعتبة الخالق جل وعلا، الذي بيده جميع العلويات والسفليات.

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ

هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠

أي الذي شرح الله تعالى له وأراه ملكوت السماوات والأرض ترجون منه أن يضل بسبب جدالكم وعبث نقاشكم العقيم، كلا.

فائدة: كان قوم إبراهيم يقولون: أنت تنال من آلهتنا، فكن على حذرٍ من أن تصاب -عياذا بالله- بجنون أو بداهية أخرى وبالًا عليك. فأجاب إبراهيم عليه السلام: مالي أخاف من لايملك النفع والضر ولا الألم ولا الراحة، وأما إذا أراد ربي أن يصيبني بضر، فلايخرج أحد عنه، فهو الذي يعرف بعلمه المحيط من يليق به أن يضعه في أي حالة من الحالات.

وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١

أي ما لي أخاف آلهتكم، وليس بأيديكم النفع والضر، وأما توحيد الله تعالى فليس جريمة، حتى أخاف منه. وأما أنتم فقد خرجتم على الله تعالى وعصيتموه، والله تعالى يملك النفع والضرر، فعليكم أن تخافوا عقوبة جرائمكم ومعاصيكم.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢

صحت الأحاديث بأن النبي ﷺ فسّر الظلم هنا بالشرك. كما في سورة لقمان: (اِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْم) فكأن التنوين في (بِظُلْمٍ) للتعظيم. فحاصل المعنى أن المأمون والمهتدي ليس إلا من آمن إيمانا لايشوبه الشرك إطلاقًا. فلو آمن بالله تعالى ولم يمسك عن الشرك، فليس إيمانًا شرعيًّا، ولا سببًا للأمن والنجاة.

وهو كما قال تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ اَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ اِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُوْنَ)[يوسف:١٠٦]، وحيث يستبعد ظاهرًا الاجتماع بين الإيمان والشرك، حمل المترجم المحقق رحمه الله الإيمان على اليقين، تسهيلا وتفهيما، وحمل الظلم على الخسارة، وهو موافق للغة العرب تمامًا، كما في قوله تعالى: (وَلَمْ تَظْلِمْ مِّنْهُ شَيْـًٔا) [الكهف:٣٣]. والمراد بهذه الخسارة هو الشرك، كما صرحت به الأحاديث، وفي نظم الكلام نفسه كلمة (لبس) قرينة على ذلك، وقد فصل المترجم رحمه الله تحقيقه في المقدمة، فليرجع إليه.

وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣

أي إظهار إبراهيم على قومه بهذه الأدلة القاهرة، ورفع أمره في الدنيا والأخرة ليس إلا من العليم الحكيم الذي يعلم استعداد وقدرة كل أحد، ويهيئ له ما يناسبه من الفرصة بحكمته.

وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤

أي أعطينا إبراهيم عليه السلام ليس فقط العلم والفضل الذاتي؛ بل أعطيناه في كبره ولدًا مثل

إسحاق، وحفيدًا مثل يعقوب. ويعقوب هو إسرائيل الذي ينتسب إليه أمة عظيمة في الدنيا وهم بنو إسرائيل، الذين بعث منهم آلاف الأنبياء؛ بل كما صرح القرآن في آية أخرى بأن الله تعالى جعل النبوة والرسالة في ذرية إبراهيم بعده.

فائدة١: ذكر أولًا بعض فروع إبراهيم عليه السلام، وذكر هنا بعض الأصول، فإن نوحًا عليه السلام من أجداد إبراهيم عليه السلام، وكما انحصر الكتاب والنبوة بعد إبراهيم في ذريته، كذلك انحصر النوع البشري بعد نوح عليه السلام في ذريته، فكأنه آدم الثاني للعالم بعد الطوفان، قال تعالى:(وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَه هُمُ الْبٰقِيْنَ)[الصافات:٧٧].

فائدة٢: كان داود وسليمان بين الأنبياء على لون واحد بالنظر إلى الملك والسلطة الظاهرة، ويتشابه أيوب و يوسف عليهما السلام لحد كبير في الصبر على المصائب والشدائد، ونحن في غنىً عن القول فيما بين موسى وهارون من العلاقة القريبة. وقد طلب موسى عليه السلام من الله تعالى هارون وزيرًا له، ولعل المحقق - قدس سره- نبَّه -بإيراده كلمة دالة على المفعولية- على هذا النوع من اللطائف. والله أعلم.

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيٰى وَعِيسٰى وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾

أي عالمي زمانهم.

وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيّٰتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنٰهُمْ وَهَدَيْنٰهُمْ إِلٰى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

ذٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

أي هذا هو طريق التوحيد الخالص، والمعرفة والطاعة الإلهية، الذي يوفق الله تعالى له عباده بفضله وكرمه، ثم يرفع درجاتهم حسب استعدادهم جزاءً عليه.

هذا خطاب لنا بأن الشرك يحبط أعمال الإنسان كلها، حتى أن الأنبياء والملائكة المقربين – فضلا عن غيرهم- لو صدر منهم – على سبيل الفرض والتقدير- لحبطت أعمالهم كلها.

أُو۟لٰٓئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنٰهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

فائدة: أي لو أنكر كفار مكة أو غيرهم من المنكرين هذه الأمور- من الكتاب والشريعة والنبوة- فإن دين الله تعالى لايتوقف عليهم، فقد هيأنا أمة أخرى وهم المهاجرون والأنصار وأتباعهم لقبولها وحفظها ونشرها. وهؤلاء ليسوا معرضين عن شيء مما أمرناهم بها.

أُو۟لٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدٰىهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٰى لِلْعٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

يتفق الأنبياء كلهم على العقائد وأصول الدين، والمقاصد الكلية، فدستورهم الأساسي واحد، وأمِرَ كل نبي بالسير عليه، وكان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدوره مأمورا بالسير على هذا الصراط المستقيم. فكأن هذه الآية تنبِّه على أن طريقك من حيث المبدأ

لايختلف عن طريق الأنبياء والسابقين. وأما الاختلاف في الفروع، فقد حصل من قبلُ بالنظر إلى مناسبة كل عصر واستعداده. فلاغرو أن يحصل اليوم أيضًا.

فائدة: أخذ علماء الأصول من عموم هذه الآية أن النبي ﷺ إذا ذكر الشرائع السابقة في أمر من الأمور، كان ذلك حجة في حق الأمة أيضًا، شريطة عدم النكير عليه من الشارع كليًا أو جزئيًا.

فائدة: أي لايفوتني نفع إن لم تؤمنوا به، فإني لاأسألكم عليه أجرًا، وإنما أجري عند الله تعالى. وأما أنتم فبانحرافكم عن النصح جلبتم الضرر على أنفسكم. فإن لم يقبل البعض في العالم النصح فإن البعض الآخر يقبله. ومن أبى فلايلومنّ إلا حرمانه وشقاوته.

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

ذكر الركوعُ السابق منصب النبوة وأسماء كثير من الأنبياء، وأن النبي محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدوره مأمور بالسير على الصراط المستقيم من التوحيد والمعرفة، الذي أمر الأنبياء السابقون بالسير عليه. ومن سنة الله القديمة إرسال الأنبياء لهداية خلقه سبحانه. وهذه الآيات ترد على الجهلة و المعاندين الذين يستفزّهم الحماس أو الغضب - إلى إنكار صفات الله تعالى سفهًا وجهلًا أو عنادًا للرسول ﷺ، بحيث إنهم -الجهلة- قالوا: إن الله تعالى لايشرِّف أحدًا من البشر بوحيه وكلامه الخاص. فكأنهم نفوا إنزال الكتب وإرسال الرسل رأسًا.

فائدة: أي لو أن الله تعالى لم ينزل – حقًّا- شيئًا على بشر، فالتوراة – ذلك الكتاب المقدس الذي يُطلِع العباد على الأحكام وما يرضي الله تعالى، ويحمل نوعًا عجيبًا وغريبًا من نور الرشد والهداية، ويعلمكم ما لم تعلموه أنتم ولا البشر كلهم بمجرد عقولكم وحواسكم من غير إعلام من الله تعالى، أنى لكم ذلك، ومن نزل التوراة على موسى عليه السلام؟ وسلمنا أنكم اليوم قطعتموه قطعة قطعة، وتعرضونها على الناس حسب أهوائكم، وقد كتمتم كثيرًا من أخبارها وأحكامها، فلم تتركوا أصل نورها، غير أن ما تبقى منها يدل على أن القصر - الذي يشكل هذا خرابه- كان على غاية السمو والشموخ في أيام عروجه وازدهاره.

فائدة: أي من ذا يخرج من خزانته هذا النور والهدى غير الله تعالى؟ وإذا لم يؤمن الناس بمثل هذا الأمر البديهي والواضح فما عليك إلا التبليغ والتنبيه ثم تنحَّ عنهم، وذرهم ليخوضوا في خرافاتهم ولهوهم، وسيخبرهم الله تعالى حين يأتي موعده.

* * *

القرآن والنفس البشرية

بقلم: الأستاذ الشيخ علي حسن العماري

اختلفت آراء العلماء قديمًا، ولا تزال تختلف آراء العلماء المحدثين حول الفطرة التي جبل عليها الإنسان.

فذهب فريق كبير من العلماء، ومنهم الفيلسوف اليوناني «سقراط» إلى أن الفطرة خير، ونفس الطفل في نظر سقراط وعاء لكل كمال.

وذهب فريق ثان، ومنهم أفلاطون إلى أن الفطرة شر، والنفس – في نظره – هبطت إلى العالم المادي من عالمها الروحي للابتلاء والاختبار، وهي لا تطهر الا بالرياضة والمجاهدة.

وعلى هذا الرأي كثير من شعرائنا المتشائمين أمثال أبي العلاء المعرّي الذي يقول:

ونحن في عالم صيغت أوائله
على الفساد، ففي قولنا فسدوا

ويقول:

والشر في الجد القديم غريزة
فبكل نفس منه عرق ضارب

حتى الشعراء الذين كانوا أكثر تفاؤلا وصفوا الطبيعة البشرية في بعض تهويماتهم بأنها شر، ومن ذلك قول المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفـــة فلعلـــة لا يظلـــم

وقول بعض الشعراء المحدثين – وكان حينذاك شابا في مقتبل العمر:

إنني – والعياذ بالله مني
من بني الإنس من هواة الشرور
صورتني الحياة من شر ماء
وتكونت من ضلال وزور

والأكثرون من العلماء الشرقيين والغربيين على السواء يرون أن الفطرة مستعدة للخير وللشر – ومن هؤلاء (أفلاطون) الذي يرى أن من الطبائع ما يميل إلى الشر بسهولة محزنة ومنها ما يميل – على الضد من ذلك – إلى الخير من تلقاء نفسه، وأن الله تعالى لم يسو بين الناس جميعا فيما وهب من ميول الخير كما لم يسو بينهم فيما قدر من ميول الشر.

وقد اضطرب رأي الإمام الغزالي، فرأى في موضع من كتبه أن الإنسان ولد خيرا بطبعه، ورأى في موضع آخر أن الإنسان ولد قابلا للخير والشر، ورأى في موضع ثالث أن الإنسان ولد وفي طبيعته الشر.

وقد ذكر أن ميل الإنسان إلى الحكمة، وحب الله، ومعرفته، وعبادته هو مقتضى طبعه، كالميل إلى الطعام والشراب، وأن ميله إلى السوء والقبائح غريب عليه، خارج عن الطبع، كالميل إلى أكل الطين الذين قد يغلب على بعض النفوس بالعادة، كما ذكر أن القلب بأصل

الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان، صلاحا متساويا وذكر بعض الدارسين لكتبه وآرائه أنه يقول: إن الخطيئة أساسية عند كل إنسان.

ومن الفلاسفة الغربيين من يرى أن الطفل منذ ولادته إلى سن محدودة ليس له حياة أدبية، فلا تنسب فطرته لا إلى الخير ولا إلى الشر، لأنه لا يعقل ما يفعل.

ومن كتّابنا من يرى رأيا ويذهب يستدل عليه من القرآن الكريم، ولا دلالة للآية على ما يرى، فقد ذهب بعض الكاتبين مثلا إلى أن الإنسان يستطيع بفطرته الابتعاد عن الله، والكفر بآياته، وذكر دليلا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وليس في الآية ما يشير من قريب أو من بعيد إلى أن الكفر بآيات الله في فطرة الإنسان.

بعد هذا التلخيص الموجز الذي أظنه وافيا لآراء العلماء في (الفطرة الإنسانية) نقف وقفتنا مع القرآن الكريم، فنرى آية من آياته صريحة واضحة في هذا الشأن، قال تعالى في سورة الروم: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الفطرة أن الله خلق الخلق قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبا للعقل، مساوقا للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن، ويستدلون على ذلك بقول النبي ﷺ: «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين وأمروهم أن يشركوا بي غيري»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». وفي بعض الروايات تكملة لهذا الحديث: «كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها». وقالوا في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ أي ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة، أو تغير أو لا صحة ولا استقامة لتبديل فطرة الله تعالى بالإخلال بموجبها، وعدم ترتيب مقتضاها عليها باتباع الهوى، وقبول وسوسة الشيطان.

وردّ هذا التفسير بأن التبديل بهذا المعنى مقدور؛ بل واقع قطعا، واختير عليه تفسير لعله أقرب وأصح، وخلاصته أن أحدا لا يقدر أن يغير خلق الله سبحانه وفطرته، فالمراد بالتبديل تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأسًا ووضع فطرة أخرى مكانها غير قابلة للحق، ولا متمكنة من إدراكه.

ومعنى ما ذهب إليه هؤلاء المفسرون أن فطرة الإنسان قابلة للخير والشر يأتيها من خارجها؛ ولكن من العلماء الناظرين في القرآن أيضًا مَنْ يرون أن الإنسان خلق قابلا للخير والشر ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ وبقوله عز وجل في شأن الإنسان: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ وبقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

ولا دليل في هذه الآيات على أن الفجور طبيعة

وجبلة في النفس، لأن معنى الإلهام – هنا – الإفهام فالله قد أودع في النفس الإنسانية العقل الذي يدرك طريق الفجور كما يدرك طريق التقوى، ومما يؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ فنسب الفعلين (زكى ودسى) إلى الإنسان.

وكذلك لا حجة في الآيتين الأخيرتين؛ لأن معنى الهداية فيهما: الإرشاد إلى الطريقين: طريق الخير وطريق الشر، ولا تدل (الهداية) على أن ذلك مودع في نفس الفطرة.

وبعض المفسرين يرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أن ذلك إرشاد إلى الخير فقط، لأن السبيل لا يطلق إلا على الهدى، ويفسر المراد من هداية السبيل بأنه نصب الدلائل، وبعث الرسل وإنزال الكتب.

والدليل على صحة تفسير الهداية بالبيان والإرشاد في الآيتين، والابتعاد بها عن معنى خلق ذلك في الفطرة قوله تعالى في آية (الدهر): ﴿نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ والاختيار لا يكون مع الإلجاء، وفائدة السمع والبصر إنما تظهر مع الحرية في العمل، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز.

آية واحدة من كتاب الله تحول دون تعميم الحكم على الفطرة بأنها كلها خيرة، هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

ففي هذا النص دلالة واضحة على أن الجزع عند مس الشر، والشح عند مس الخير صفتان خلق بهما الإنسان، وأودعا في الجبلة، وبذلك قال فريق من المفسرين، وجعلوا الاستثناء منقطعا، ولكن الذي تميل إليه النفس- وهو ما يتفق مع آية الفطرة ومع أحاديث الفطرة كذلك – أن غريزة حب المال التي أودعها الله في الإنسان لمصلحته ولتعمير الكون – كما سنشرح ذلك بعد حين – قد يحوطها من الظروف والأسباب ما ينحرف بها عن وجهتها النبيلة فتصير إلى الشح، وكثيرا ما يحدث ذلك، فبالغ القرآن في تصوير هذا المعنى فجعل الشح كأنه مخلوق مع الإنسان.

وفي ذلك يقول الزمخشري: «والمعنى أن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه، ورسوخهما فيه كأنه مجبول عليهما مطبوع، وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختياري كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلع ولأنه ذم، والله لا يذم فعله، والدليل عليه استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره، وظلفوها عن الشهوات حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين».

والذي يعنينا من كلام الزمخشري أنه فهم الآية على أن ما فيها من قبيل المبالغة، وليس الهلع من الجبلة، أما بقية كلامه فموضع نظر.

وعلى هذا الوجه يكون الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ متصلا على معنى أن الناس جميعا يجزعون عندالشر، ويمنعون إذا نالوا خيرا إلا الذين وصفهم الله بعد ذلك من محافظتهم على الصلاة، وإيتائهم الزكاة إلى آخر هذه الصفات، فإن هؤلاء آثروا الآجلة على العاجلة، وعرفوا قيمة هذه الحياة فهم لا يجزعون ولا يمنعون».

من تـاريخ الجامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبند

(الحلقة ١١٩)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه الله-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

تهمة تمشي بلا رجل:

حمَّل بعض الناس دارَالعلوم/ديوبند مسؤولية اعتقال شيخ الهند، وقالوا: إن حركة شيخ الهند كانت في منتهى الخفاء والسرية، ولم يطلع عليها إلا خاصة الناس، واطلعت الحكومة البريطانية على الأسرار الخفية للحركة عن طريق إدارة المدرسة، وبالتالي تم اعتقاله. ولكي نستعرض أسباب الاعتقال ونتوصل إلى نتيجة صحيحة يجب أن نمعن النظر في الأحداث التي وقعت في خصوص الاعتقال حتى يتجلى لنا واقع الحدث وقصته الحقيقية.

ونظرًا إلى الوضع الذي وقع فيه اعتقال شيخ الهند، من الصعوبة بمكان الإيمان بهذه التهمة. فقد صرح تقرير لجنة «رولت» - وهو أهم وثيقة رسمية في خصوص هذا الاعتقال- بأن هذه المؤامرة انكشف القناع عنها في أغسطس عام ١٩١٦م[1].

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن أيام أغسطس عام ١٩١٦م/شوال عام ١٣٣٤هـ كان ينزل فيها شيخ الهند في الحجاز، وكان خرج للحج قبل ذلك بنحو سنة واحدة في شهر أغسطس عام ١٩١٥م، وأكب على تجسيد خطته السياسية بعد الحج. وبطلب منهم كان غالب باشا حاكم الحجاز كتب الرسالة الشهيرة الحاملة للقبائل الحرة في منطقة «سرحد» على الثورة ضد الإنجليز، التي اشتهرت في تاريخ الهند باسم «غالب نامه». وبعد أن حصل شيخ الهند على «غالب نامه» كان يستعد للوصول إلى القبائل الحرة إذ تم اعتقاله هو وأصحابه في مكة المكرمة، وقد تم استقاء هذه التفصيلات كلها مما سجّله الشيخ حسين أحمد المدني في «حياته» المسمى بـ«نقش حياة».

وكتاب «حياة شيخ الهند» من عمل الشيخ ميان أصغر حسين، ولم يُعمل هذا الكتاب إلا بعد وفاة شيخ الهند في ١٨/ربيع الأول ببضعة أشهر في

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

رجب عام ١٣٣٩هـ، يقول فيه الشيخ ميان أصغر:

«لم تشك الحكومة في موقف الشيخ رحمه الله عند رحلته للحج، وكانت رحلته للحج رحلة دينية، ومن هنا لم يتم إجراء فحص وتفتيش غير عادي عند رحلته ووصوله إلى مومبائ ومغادرة السفنية لها، ولا تعرض لاستجواب خاص. كما لم يتم استجواب الشيخ أو أصحابه في «مومبائ» أكثر من اللازم، وإنما أصدروا له جوازات السفر بعد استجواب عادي مثل عامة الحجيج[٢].

ونظرًا إلى طبيعة الرحلة هذه يتجلى أن الحكومة البريطانية كانت – إلى رحلة شيخ الهند إلى الحجاز – تجهل تمامًا حركته السياسية أو – على أقل تقدير – لم تملك دليلا يبرر لها اتخاذ إجراء قانوني ضده. فلو أن الحكومة البريطانية اطلعت على حركة شيخ الهند عن طريق إدارة المدرسة – كما تحسبه بعض الأوساط – فمن اللازم أن تكون الحكومة قد اطلعت على ذلك قبل رحلته للحج، وكان الواجب أن تبدأ التحقيقات من ذلك الحين، ويردّ ذلك موقف السلطات البريطانية الذي اتخذته بعد ذلك بسنة واحدة. و جاء في «نقش حياة»: استمرت التحقيقات في الهند سنة فأكثر اعتبارًا من ذي القعدة عام ١٣٣٤هـ (سبتمبر ١٩١٦م)[٣] فكأن اعتقال شيخ الهند وأصحابه ومسترشديه جاء حين كان شيخ الهند في الحجاز.

وهنا يطرح السؤال نفسه: إذا كانت الحكومة البريطانية اطلعت على حركة شيخ الهند عن طريق إدارة المدرسة، فإنه ماكانت الحكومة تسمح له بالرحلة إلى الحجاز حينئذ وخاصة إلى بلد يحكمه الأتراك، الذين كان الإنجليز في حرب معهم أطلقت عليه الحرب العالمية الأولى. وكانت الحكومة ترى جريمة شيخ الهند في منتهى الخطورة، وهي محاولة الثورة ضد الإنجليز، والاستعانة بالأتراك والإطاحة بالحكومة البريطانية. ثم إن عدم اتخاذ الحكومة البريطانية شيئًا من الإجراءات، وسماحها له ولأصحابه بالرحلة إلى الحجاز؛ كل ذلك أمر غير منطقي. ولم تتأتَّ فرصة اعتقال شيخ الهند للحكومة البريطانية إلا بصورة مصادفة فيما بعد. وذلك أن شريف مكة خرج على الأتراك خلال الحرب العالمية، وتحالف مع الإنجليز، فطالب الإنجليز شريف مكة أن يُحضر شيخ الهند كأسير حربي، فامتثالًا لأمرهم قام باعتقاله وتسليمه إلى السلطات البريطانية؛ فإن الحكومة البريطانية كانت ظهيرًا لشريف مكة في خروجه على الأتراك. ولو أن شريف مكة لم يخرج على الأتراك لم يمكن اعتقال شيخ الهند في حدود حكومة تركيا.

والوثيقة السرية الرسمية للحكومة البريطانية آنذاك التي ظهرت للعيان الآن باسم «قضية الرسائل الحريرية» مما يؤيد بطلان هذه التهمة. فقد

جاء في الوثائق الرسمية فيما يخص رحلة شيخ الهند للحج: عندما وقعت الرسائل الحريرية في أيدي السلطات الإنجليزية في أغسطس عام ١٩١٦م اطلعوا على هذه الحركة، وجاء في التقرير الرسمي:

«عندما وُجِّه السؤال إلى قسم المخابرات في ولاية «أترابراديش» عن محمود حسن وخليل الرحمن[٤]، تبين أنهما يُعتبران غير أوفياء، كما أن محمود حسن يتلقى مبالغ كبيرة من تبرعات المسلمين، وأنه يتحالف مع الدكتور الأنصاري- الدكتور مختار أحمد الأنصاري- ويشاركه في أمره. ويشتبه فيه بأنه على صلة مع العناصر المعارضة والمنحرفة خارج الدولة، وأن هذه البعثة تحمل أهدافا سياسية»[٥].

ثم جاء فيه لاحقا:

«من الشائعات أنه يلقى بعض السلطات التركية في الحجاز، ولم نطلع بعدُ حتى يتم إيقافه في الهند»[٦].

وفي خريف عام ١٩١٥م وربيع عام ١٩١٦م عاد بعض أعضاء هذه الأحزاب إلى الهند، ولم نقم باستجواب عبيد الله أو محمود حسن ما لم نتلق معلومات وثيقة حول مؤامرة عبيد الله عن طريق الرسائل الحريرية»[٧].

كما يفيد هذا التقرير الرسمي السري أيضًا بأن السلطات البريطانية كانت تحمل مجرد الشكوك في النشاطات السياسية لشيخ الهند حتى بعد رحلة الحج بسنة واحدة، ولم يملكوا خبرًا وثيقًا في ذلك، ولم تطلع السلطات البريطانية على الحركة إلا بعد أن وقعت في أيديها الرسائل الحريرية.

فالصواب ما يدل عليه تقرير لجنة «رولت» أن الحكومة لم تطلع على حركة شيخ الهند إلا عام ١٩١٦م حين كان نازلا في مكة المكرمة، كما يؤيد ذلك أيضًا ما قاله الشيخ حسين أحمد المدني – الذي صحب شيخ الهند في هذا الاعتقال- في كتابه بخط يده «نقش حياة»:

«كان قد مضى على نزول شيخ الهند في الحجاز سنة واحدة، ورأى الدكتور مختار أحمد الأنصاري أن الشيخ قد نفد عنده المال لنفقاته، فيجب إرسال بعض النقود إليه، فأرسل في ذي القعدة عام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م أحد أقارب شيخ الهند إلى الحجاز، وتعرض الرجل في طريقه للتفتيش الشديد، دون أن يحصل الشرطة على شيء. وفي أعقاب الحج أطلعه شيخ الهند على بعض الأمور الهامة حول الحركة، ومنها أنه تم إرسال رسائل أنور باشا – وزير الحربية في تركيا – على يد المولوي هادي حسن إلى الهند، وتتيه السلطات البريطانية هنا في البحث عن «غالب نامه»، ولما عاد الرجل من الحجاز ووصل إلى مومبائ تم اعتقاله، ونقله إلى إله آباد، حيث مارس سلطات الشرطة السرية الضغوط

والتهديدات عليه حتى انتزعوا منه جميع الأسرار[٨].

ووصف الشيخ المدني إجراءات التفتيش هذه بـ«البوح بالسر».

وقال الشيخ المدني عن السر الذي اطلع عليه الشرطة والذي باح به الرجل المذكور:

«فيه ما لو ثبت لعرض مالايحصى من الناس لتجرع كأس الشهادة، وتعرض مالا يحصى للجلاء إلى البحر المالح، والمعاقبة بالحبس الدائم»[٩].

وكما سبق آنفا أن الشرطة الهندية اطلعت – كما أفاد الشيخ المدني- على الأسرار كلها بلسان القريب المذكور آنفًا هذا في جانب، وفي جانب آخر كتب في الأيام نفسها الشيخ عبيد الله السندي والشيخ محمد ميان منصور الأنصاري- وكانا من أنشط أعضاء حركة شيخ الهند في أفغانستان إلى شيخ الهند رسائل[١٠] كما تؤكده مذكرة الشيخ السندي و «نقش حياة» جميعًا، و تضمنت الرسالة الأخبار بتوزيع نسخ «غالب نامه» في القبائل الحرة كما أشارت الرسالة إلى الأوضاع السياسية في أفغانستان، وتشكيل الحكومة الموقتة فيها وتنظيم جيش باسم حزب الله، والتنويه بأماكن مراكز الجيش، وتفاصيل أسماء المسؤولين المدنيين والعسكريين، وجاء تسجيل هذه الرسائل على الحرير بدلا من الأوراق بمنتهى الحذر والحيطة. وأرسلوا هذه الوثائق على يد أحد الثقات - وهو المدعو/عبد الحق- إلى «السند»، وأمروه أن يحملها إلى الشيخ عبد الرحيم بمنتهى السرية والحذر الشديد. وكان الشيخ عبد الرحيم من أهم أعضاء هذه الحركة، وجاء في الرسالة إلى الشيخ أمره بأن يتوجه للحج، ويحمل هذه الوثائق إلى شيخ الهند. وقصر عبد الحق في أداء واجب الثقة رغم التأكيد على اتخاذ الحذر الشديد - فقد اعتمد لسذاجته في طريقه على رجل يدعى حق نواز خان[١١] من ملتان فذكر له أمر الوثائق التي كانت معه، وكان حق نواز خان-نجل خان بهادر- سكريتيرا في الحكومة الهندية الموقتة في أفغانستان. ولعل سوء التفاهم هذا حمل عبد الحق على اعتبار «خان بهادر» من أنصار الحركة، ولكن كان خان بهادر وفيًا للحكومة البريطانية. فراود عبدَ الحق عن الوثائق وأخذها منه لينظر فيها، ثم لم يردها إليه؛ بل قدمها إلى حاكم بنجاب المدعو/السير مائيكل أودوائر[١٢]. وكانت السلطات البريطانية تائهة في البحث عن «غالب نامه»، وكان التحقيق مع المنتمين إلى شيخ الهند مستمرًا، وبعد أن وقعت هذه الوثائق في أيديها بصورة مفاجئة انكشفت جميع الخطوات الخاصة بالحركة على السلطات البريطانية. وهذه الرسائل هي التي اشتهرت في تاريخ الهندي السياسي بـ«الرسائل الحريرية».

هذه التفاصيل الآنفة الذكر تبين بجلاء أن

السلطات البريطانية كانت غافلة عن النشاطات السياسية لشيخ الهند حتى رحلته إلى الحجاز. ولم يطلعوا عليها إلا بعد رحلة الحجاز، ورغم التفتيش والتحقيق لم يعثروا على شيء.

يقول الشيخ المدني رحمه الله: في أواخر عام ١٣٣٤هـ الموافق سبتمبر عام ١٩١٦م[١٣]، انكشفت الأوضاع على لسان هذا الرجل الذي وصف بقريب له في جانب، وفي العهد القريب منه نفسه عثروا على الرسائل الحريرية التي أرسلوها على يد عبد الحق، والتي استمر التحقيق فيها – كما يقول الشيخ المدني– مدة سنة فصاعدا، وهذان الحدثان وقعا إبان نزول شيخ الهند في مكة المكرمة.

ولايغيبن عن البال أن الرسالة التي أرسلها الشيخ عبيد الله السندي من «كابول» إلى الشيخ عبد الرحيم مع الرسائل الحريرية سجل فيها يوم الاثنين من ٩/رمضان المبارك. وكان ذلك عام ١٣٣٤هـ، فلنقل: إنه يوم الاثنين من ٩/رمضان المبارك عام ١٣٣٤هـ= ١٠/يوليو عام ١٩١٦م.

ورسالة الشيخ منصور الأنصاري المورخة بـ٨/رمضان المبارك كان في العام نفسه (١٣٣٤هـ)، الذي يطابق ٩/يوليو عام ١٩١٦م.

واستلم حق نواز هذه الرسائل من عبد الحق في ١٥/أغسطس عام ١٩١٦م، وذلك يعني أن الرسائل الحريرية وقعت في أيدي السلطات البريطانية بعد كتابتها بخمسة أشهر.

ولاتوحي هذه الأحداث إلى شيء يدل على أن خطة شيخ الهند السياسية قد اطلع عليها الحكومة الهندية أيام بقاء شيخ الهند في ديوبند. والحاصل أن الاستعراض المنطقي للأحداث لايدل على ثبوت هذه التهمة في حق إدارة دارالعلوم في ضوء الحقائق التاريخية.

* * *

الهوامش:

(١) للاستزادة منه راجع: نقش حياة، ٢/٢٣٨، ط: مطبعة دهلي للطباعة، دهلي، عام ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

(٢) حياة شيخ الهند، ص ٣١،٣٢.

(٣) نقش حياة ٢/٢٣٨، ٢٣٢ .

(٤) اسمه الصحيح: خليل أحمد. وهو الشيخ خليل أحمد السهارنفوري.

(٥) تحريك شيخ الهند، ترتيب: الشيخ محمد ميان ص ١٤٥، ط: مطبعة الجمعية للكتب، دهلي، عام ١٩٧٥م.

(٦) نفس المصدر، ص ١٧١ .

(٧) نفس المصدر، ص ١٧٢ .

(٨) نقش حياة ٢/٢٣٣،٢٢٨.

(٩) نقش حياة ٢/٢٣١ بعنوان «البوح بالسر».

(١٠) نقش حياة ٢/٢٤٢.

(١١) جاء «تحريك شيخ الهند» اسم «رب نواز خان» استنادا إلى الوثائق الرسمية.

(١٢) نقش حياة ٢/١٧٠، ١٩٤، ٢٤٢ نقلا عن المذكرة الشخصية للشيخ السندي.

(١٣) ورد في الوثائق الرسمية تاريخ عثور السلطات البريطانية على الرسائل الحريرية يوم ١٥/أغسطس عام ١٩١٦م، راجع: تحريك شيخ الهند، ص ١٨٢ .

الذين يسعون إلى الهلاك والدمار

بقلم: الدكتور/ عمر سليمان الأشقر

نعجب أشد العجب إذا رأينا من يبذل جهده وماله فيما لا يعود عليه بالخير، وقد يعود عليه بالضرر.

فإذا رأينا شخصًا يصيد السمك من البحر، ثم يرميه في البحر مرة أخرى بعد أن بذل في صيده جهدًا كبيرًا، وإذا رأينا شخصًا يبذل مالاً كثيرًا ثمنًا لأفاعي وعقارب لا يكاد يدخلها داره حتى توسعه وأهله نهشًا ولسعًا، وإذا رأينا من يشري دارًا آيلة للسقوط بثمن كبير لا يكاد يبيت فيها وأهله حتى تنهار فوق رؤوسهم – إذا رأينا هؤلاء وأمثالهم فإننا نعجب من حالهم كثيرًا، ونتوجه إليهم باللوم والتأنيب.

وقد وجه الله أنظارنا إلى أمثال هؤلاء، فاليهود الذين كانوا يسكنون المدينة نقضوا عهودهم، فأذاقهم الله عاقبة مكرهم،ووصل بهم الحال إلى أن هدموا بيوتهم بأيديهم لكيلا يستفيد المسلمون منها ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[1].

والسبب الذي يجعل بعض الناس يبذلون جهودهم وأموالهم في أمور لا تعود عليهم بالخير، وستعود عليهم بالشر – يرجع إلى ضعف في العقل، أو قصور في العلم، فبعض الناس يتصرفون تصرفات الحمقى؛ لأنهم فقدوا عقولهم أو لأن في عقولهم نقصًا وآخرون يظنّون أن فيما يقومون به من أعمال خيرًا، وواقع الأمر أنها شر كلها، والأعجب من كل هذا أن يكون عند الناس العقول، ويأتيهم من يعرفهم بالخير والشر، ومع ذلك فهم يقدمون على أعمال تدمّرهم وتهلكهم.

لقد جاءت الرسل من عند الله إلى البشر على امتداد العصور ترسم لهم الطريق الذي يحقق لهم السعادة والهناء ودعتهم إلى سلوك هذا الطريق، وحذّرتهم من الانحراف عنه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[2].

والسبيل يتمثل بما شرعه الله لعباده في العقائد، وفيما شرعه من عبادات، وفيما أحله وأباحه، وتجاوز ذلك كله أو بعضه انحراف عن الطريق وتعدّ لحدود الله.

والسير في الصراط المستقيم يتمثل في أعمال تبذل، وأقوال تنطق، وتفكير ومعاناة، والانحراف عن الصراط المستقيم يتمثل في ذلك أيضًا، إلا أن ما يبذله الإنسان في السبل المنحرفة عن النهج الإلهي المستقيم يعود على الإنسان بالدمار.

انظر إلى حال الذين يتعدون الحلال إلى الحرام، يتركون الطيبات من الطعام والشراب ويتناولون الحرام كالذين يشربون الخمر ويأكلون الخنزير والميتة، إنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، ويشترون صفقة خاسرة تعود عليهم بالضرر في عقولهم وأبدانهم، وتكسبهم صفات خبيثة تدنس نفوسهم.

والذين يتركون الزواج المشروع إلى الزنا واللواط، والذين يتجاوزون ما أحله الله من الكسب المشروع إلى ما حرمه من الاتجار بالحرام، والتعامل بالربا، والذين ينتهكون أعراض المسلمين وينشرون بينهم الفاحشة باسم الفن والتمدن، فتخرج النساء متبرجات في الشوارع وأفلام السينما وعروض المسرح يتمايلن ويغنين ويرقصن، أو يظهرن في دعاية لسلعة أو خدمة – كل هؤلاء يبذلون جهدًا ومالًا في غير محله – وهو يعود عليهم بالضرر.

وهذا الضرر يشاهد في كثير من الأحيان ويلمس، نشاهده في الأضرار التي تصيب الأجساد والمجتمعات بحيث تنشر الأحقاد والعداوة والبغضاء ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٣].

وهذا ما عبّر عنه القرآن بظلم الإنسان لنفسه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[٤]. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٥].

ثم هذا التعدي يصيب الإنسان بالشقاء النفسي، ذلك أن الابتعاد عن منهج الله يُقْسِي القلب، ويخبث النفس، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[٦].

وأعظم من ذلك كله أن تعدّي حدود الله وشرعه يجلب غضب الله تعالى، وقد ينزل الله عقابه بالظالمين ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ

مَّشِيدٍ﴾[٧]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[٨].

وعندما ينزل العذاب بسبب ظلم العباد تذهب السكرة وتأتي الفكرة، ويقع الاعتراف بالذنب؛ ولكن حيث لا ينفع الاعتراف ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾[٩].

هذا في الدنيا، أما العقوبة لمن تعدى حدود الله في الآخرة فهي عقوبة رهيبة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾[١٠].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١١].

إن الذين يسعون ليلهم ونهارهم ضاربين في هذه الحياة بمنهج غير منهج الله يكدون ويكدحون في العبادة والتجارة والصناعة، في سبيل متع الحياة ولذاتها إنما يسعون في إهلاك أنفسهم.

ونحن ندعوهم إلى الإسلام، إلى الصراط المستقيم، ندعوهم إلى أن ينطلقوا في هذه الحياة آخذين الأمور من حيث يريدها الله، في الفكر والعقيدة، في العبادة والسلوك، في القيم والأخلاق، في التجارة والزراعة وكسب المال، في الطعام والشراب واللباس، ندعوهم إلى ذلك؛ لأن في ذلك خيرًا لهم، في الدنيا والآخرة، ولأنَّ في ذلك صلاحًا لأجسادهم وتزكية لنفوسهم، ولأن في ذلك صلاحًا لهذا الكون الذي يعيشون فيه، وصلاحًا للمجتمع وهم جزء منه ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[١٢]. ندعوهم إلى ذلك، نحذرهم من الانحراف خشية أن يصيبهم ويصيبنا غضب الله ومقته ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ﴾[١٣]. وقد قالت عائشة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنهلك وفينا الصالحون؟

قال: «نعم إذا كثر الخبث».

ولقد جاءت الرسل يدعون إلى الله وإلى طريقه ويحذرون البشرية من تعدّي حدوده، ويقيمون الحجة عليهم بذلك.

ونحن اليوم علينا أن نعيد دعوة الرسل غضة طرية، نطالب الناس بالاستجابة لله، ونضعهم أمام مفرق طريق، نقول لهم: الربا رجس، والزنا جريمة، وترك الصلاة إثم كبير، وتبرج المرأة فسق... وذلك كله إثم ومعصية لله ونحن ندعوكم إلى الله وترك ذلك كله، علينا أن نترك التعليل وبيان الأسباب لأن أعظم سبب ينبغي أن يقود الناس إلى الأعمال الصالحة ويردهم عن الأعمال السيئة كونها من عند الله أمر بها أو نهى عنها، وهذا الطريق الحق يتبين بأيسر جهد أما بيان العلل والمصالح فإنه طريق طويل خاضع للأخذ والعطاء، والنقاش والخصام. وهذا السبيل يصلح مع الذين يريدون التعرف على الحكم بعد إيمانهم وتسليمهم بها.

نحن في مجتمعنا ركاب سفينة واحدة، والذين يتجاوزون حدود الله يريدون صدع السفينة وبذلك يهلكون غيرهم، ومن الحمق والسفاهة أن يقول قائل: دعوهم مالكم ومالهم، كل إنسان حريته، علينا أن نكون (ديموقراطيين)، لايجوز أن نحجر على عقول الناس وأعمالهم، من يقول ذلك لا شك في حمقه، سيعلم أنه أحمق عندما يندفع الماء من حيث أفسد المفسدون، فيجدون أنفسهم في لجة البحر، حيث لا يسمع صريخهم سامع، ولا ينقذهم منقذ، عند ذلك يعلمون أن ما فعله أولئك لم يكن حرية؛ بل فساد، لقد كان جريمة، وكان الواجب الأخذ على أيدي المفسدين، علينا أن نفيق قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم،وعند ذلك يكون حالنا حال أولئك الذين قصّ علينا حديثهم ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾(١٤).

* * *

الهوامش:

(١) سورة الحشر:٢.
(٢) سورة الأنعام: ١٥٣.
(٣) سورة المائدة: ٩١.
(٤) سورة الطلاق: ١.
(٥) سورة البقرة: ٢٢٩.
(٦) سورة طه: ١٢٤.
(٧) سورة الحج: ٤٥.
(٨) سورة الطلاق: ٨-٩.
(٩) سورة الأنبياء: ١١-١٥.
(١٠) سورة طه: ١٢٤-١٢٧.
(١١) سورة النساء: ١٤.
(١٢) سورة الروم: ٤١.
(١٣) سورة الأنفال: ٢٥.
(١٤) سورة الأنبياء: ١٤-١٥.

آفة البحث العلمي عند الغربيين وأشياعهم

بقلم: الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي

«السبر والتقسيم» قاعدة يعتمدها علماء أصول الشريعة الإسلامية، لدى استنباط علل الأحكام والتأكد من صحتها.

وهي تعني استثارة جميع الاحتمالات، وعرضها في تصنيف وتقسيم شاملين أمام الفكر ثم دراستها واحدة إثر أخرى، للكشف عن العلة التي لا بد أن تكون كامنة في واحدة منها.

والقيمة العلمية في هذه القاعدة، هي استقصاء الاحتمالات كلها، واتخاذ ذلك أساسًا للمقارنة والبحث، فإن أكثر ما قد يكون سببا لزلة الباحث العالم، في دراسة بحث ما، إنما هو عدم انطلاقه من نظرة شاملة مستقصية للاحتمالات الواردة ومهما أوتي بعد ذلك طاقة في التأمل والمقارنة والبحث، فإن هذه الطاقة قد لا تغنيه في الوصول إلى الحق أي غناء، لأن مادة البحث نفسها لم تتكامل تحت نظره وبين يدي فكره.

وإذا كانت هذه القاعدة من أهم منطلقات علماء الشريعة الإسلامية بصدد دخولهم في أي بحث علمي، فإنها لتعتبر جانبا مهملا؛ بل مجهولا، لدى أكثر الباحثين من علماء الغرب بصدد البحث في أي حقيقة علمية مما لا يخضع لبرهان التجربة والمشاهدة، كشؤون التاريخ والتاريخ الطبيعي وقضايا النفس وأكثر مسائل العقيدة وما قد يتبعها.

فمهما توفر في أبحاثهم – بعد ذلك – من مقومات الدقة في الدرس ومظاهر المنهجية أو الموضوعية في البحث، فإن شيئا منه قد لا يغنيهم عن كشف الحقيقة شيئا، لما أوضحنا من أن ضرورة تجميع المادة العلمية وحصر الاحتمالات الواردة بشأنها، ينبغي أن تكون الخطوة الأولى في السير إلى أي دراسة أو بحث.

السر في ذلك

ومن المعلوم أن استقصاء الاحتمالات كلها، ووضعها جميعا تحت مجهر واحد من النظر والفحص، هو المقصود بالموضوعية التي هي الأساس الأول لسلامة البحث العلمي، وضمان الوصول إلى نتائج سليمة صادقة من ورائه.

ومن المعروف أن «موضوعية البحث» من أكثر الكلمات التي يحتفل بها الغربيون في أبحاثهم، ومن ثم فهي منسوبة إليهم وملتصقة بهم أكثر من أن تنسب إلى أي فئة أخرى. فلماذا لا تتبوأ هذه القاعدة عندهم مكانها اللائق، وفيم تكون مهملة؛ بل مجهولة عندهم؟!.. وما السر في هذا التناقض البين،

بين المباهاة بالموضوعية من جانب وإهمال أهم مقومات هذه الموضوعية من جانب آخر؟!..

والجواب، أن موضوعية البحث قد تبدو حقيقة ثابتة في تلك الدراسات العلمية الأخرى المتعلقة بظواهر الطبيعة مما يخضع لبرهان التجربة والحس. وهي دراسات أبدع الفكر الغربي لها، بحق لا مرية فيه، منهجا من البحث الموضوعي الذي لا يشوبه أي خلل أو نقص.

أما تلك الدراسات الأخرى، التي ألمحنا إلى أصناف منها، فقد تخلفت الموضوعية عنها تخلفا كبيرا وخطيرا، مما جعلها تصبح فريسة للرغبة والبواعث النفسية أكثر من أن تكون موضوع بحث علمي مجرد.

أكثر هذه الدراسات تنطلق عندهم من رغبة سابقة في الوصول إلى نتائج معينة، ولا تبدأ من نقطة الدراسة العامة للاحتمالات المطلقة.

ومن شأن الرغبة السابقة التي تتطلع إلى نتجية بخصوصها، أو التي تتجافى عن نتيجة بخصوصها، أن تفرض على صاحبها أمانة بعض الاحتمالات سلفا، وبالتالي فهي تفرض عليه طيها عن النظر والبحث مطلقا.

وقد يكون العامل في إماتة بعض الاحتمالات، أو إهمال النظر فيها، جهلا بما قد يكون لهذا الاحتمال من أهمية أو قيمة، ولكنه يكون، في أغلب الأحيان، باعثا نفسيا يتمثل في عصبية أو تقليد أو سلطان عرف أو بيئة..

وليس بعجيب ولا مستهجن أن يتسلل باعث نفسي من هذاالقبيل إلى مجال البحث والعلم خفية عن صاحبه ودون أن يتنبه إلى تدخله في التأثير والحكم. ذلك لأن من شأن النفس أن تخادع العقل وتغافله بين حين وآخر، فتلبس الأمر عليه وتخلط أمامه الموازين بأشباهها، ولكن العجيب والمستهجن حقا، أن يتنبه الباحث من نفسه إلى هذه الظاهرة فيقرها، ثم يتخذ منها منهجا لاكتشاف الحقائق وسبيل الاعتقاد بها!..

العجيب أن تظهر في الغرب مدرسة تعلم الباحث لدى استقراء الاحتمالات المتعلقة بشرح حقيقة ما أن يستبعد منها سلفا مالا يرغب فيه، وإلا يبقى منها تحت مجهر البحث والنظر إلا ما يتفق مع رغباته وينسجم مع أمانيه المتعلقة بتفسير تلك الحقيقة. فهي تعلمه مثلا بصدد البحث في الأديان واكتشاف الدين الحق منها أن يستعرض الاحتمالات المتمثلة في المسيحية أو اللاأدرية أو الإسلام، فيسقط الإسلام منها سلفا، لأنّه احتمال غير مرغوب فيه، فهو محكوم عليه إذا بالموت!.. ثم يحصر بحثه في الاحتمالين الباقيين والمقارنة بينهما[1].

تحول الحقائق الواضحة إلى ألغاز مغلقة

ولا ريب أن تسيير منهج البحث في حقيقة الشيء تحت سلطان الرغبة قد يورث النفس رضى وبهجة ويشعرها بتحقيق بعض أمانيها، ولو في نطاق

الوهم والخيال، وقد تكون من ورائه فائدة أهم فيما يبدو، كحفظ ذاتية الأمة من أن تذوب في كيانات أخرى. وكتوفير قوالب فكرية – ولو لم يكن لها مصداق في الخارج – تحافظ على شخصيتها من أن تميع ثم تتعرض للتجسد في قوالب أخرى.

غير أن هذا السبيل، بالإضافة إلى كونه لا يحقق إلا فوائد وهمية، من شأنه أن يضحى بقيم جوهرية ذات تأثير بالغ وخطير في حياة الإنسان فحسبه أنه يسدل فوق الحقائق الواضحة حجابا، ويبعد المسافة بينها وبين كل محاولة لمزيد من العلم بها، ويحيلها إلى ألغاز وأحاجي غامضة بدون أي موجب أو سبب حقيقي مفيد، فتغدو بذلك جميع النظريات المطروحة في تفسيرها مظهرا للحيرة في شأنها أكثر من أن تكون اقترابا إليها لحل مضمونها!.. وطبيعي أن تتناسخ النظريات، بسبب ذلك في شأنها، في تطواف دائب ضمن حلقة مفرغة لا نهاية لها.

والنقاش فيها كلام فارغ

والذين يغيب عن بالهم هذا الواقع الخطير الذي نتحدث عنه، يتوهمون أن النقاش في مثل هذه النظريات والآراء القائمة على هذا المنهج، قد يعود بأصحابها إلى سبيل الرشد والمنطق السليم، فيبدؤون حياة؛ بل عصرا، من المناقشة والجدال اللذين لانهاية لهما ولا ثمرة من ورائهما.

وشيء طبيعي أن يظل الأمر كذلك لأن منطلق كل من الطرفين يختلف اختلافا جذريا عن الآخر. فلا مطمع للفروع التي تنبثق عن كل منهما إلا أن تسير في خطين متباعدين عن بعضهما قدر ابتعاد المنطلقين على أقل تقدير.

وهكذا، فإن الخوض في مناقشة من يحلل لك الفتح الإسلامي مثلا على أنه انتصار يسار على يمين، أو تمرد على عوامل الانغلاق الاقتصادي في الجزيرة العربية، أو ثورة السيادة العربية على العنصر الأعجمي – خوض فيما لا طائل فيه من الكلام وانحصار ضمن دائرة مغلقة من الحديث. ذلك لأن صاحب هذا التحليل أمات منذ أول بحثه احتمال نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وصدقه فيما جاء يخبر عن ربه، وطواه عن أي التفات إليه أو نظر فيه، فمشى بذلك في طريق مسدود، ليجد أمامه أحد احتمالات ثلاثة لا رابع لها، ثم ليجد نفسه مضطرا إلى اختيار واحد منها. إذ مهما كانت هذه الاحتمالات بعيدة عن المنطق والبرهان التاريخي، فلا مندوحة له عن أن يغمض العين ويقبل أي واحد منها إذا كان حريصًا ألا يعود من بحثه خالي الوفاض!..

المنطق الوهمي!..

ومهما كان خطأ مثل هذا المنهج بينا، فإن صاحبه منطقي مع نفسه بالنظر لانحصاره ضمن ما في هذا الطريق المسدود. لقد رأى أمامه هذه التفسيرات الثلاثة ولم ير غيرها، إذًا لا بد أن الحقيقة مخبوءة داخل واحد منها.

وهذا هو المنطق الوهمي الذي أحال كثيرا من الظنـون؛ بـل الأوهـام المجـردة إلى أحكـام علميـة ومسلمات قطعية!.. إذ كان المصباح الذي من شأنه أن يكشف عـن زيفها وبطلانها قد أبعد عـن ساحة البحـث كلهـا، فغـدت الـساحة دينـا لهـذا الأوهـام وحدها.

إنه على كل حال منطق، وإن كان وهميا. وربما لبست الأوهام للعقول ثوب الحقيقة فانخدعت بها، فكان لها من ذلك بعض العذر!.

من صور هذا المنطق الوهمي

وما أكثر القضايا والأبحاث العلمية التي ذهبت فيها الحقائق ضحية هذا المنطق الوهمي، فانمحت عنها معالم الحق، وانحسرت من حولها مسالك البحث، وسدت إليها منافذ النظر الحر، حتى غدت ألغازا مغلقة تحوم من حولها صور الحيرة والاضطراب وتسمى افتئاتا وظلما سبل الدراية والبحث!..

من هذه القضايا تلك النظريات المضطربة المتناقضة عن قصة النشأة الإنسانية وتطورها فإنما هي «بدءا من آراء لامارك إلى الداروينية القديمة إلى ما تطورت إليه من الداروينية الحديثة» انعكاسات حيرة في تفسير تأريخ النشأة الإنسانية واكتشاف أسرارها!.. وما كان لهذا البحث أن يزج أصحابه في أي حيرة لو أنهم استعرضوا منذ أول الطريق الاحتمالات الواردة كلها، دون أن ينبذوا أي واحد منها سلفا!.. إذًا لوجدوا قصة هذه النشأة مدونة من قبل خالق الإنسان ومبدعه جل جلاله، وإذا لاستراحوا وأراحوا، ولأخضعوا الفكر والعقل لقول هذا المبدع جل جلاله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

ولكنهم لما نبذوا من احتمالات الأمر ما لا رغبة لهم فيه، فلم يقفوا عنده بأي تأمل أو نظر، كان لا بد لهم أن يحصروا أنفسهم في الحلقة التي انطبقت عليهم، أو في نهاية الطريق الذي سدوه على أنفسهم، ووجدوا أنفسهم يقولون: لا بد أن الإنسان تطور من كائن بسيط تحت سلطان القانون الطبيعي الذي يعطي أولوية البقاء للأصلح ويقضي على كل متخلف في دروب الضعف أو الفساد!.

قيل لهم: ولكن من الذي وضع مقياس الأصلح؟.. وأين هذا القانون من الطبيعية التي تجفف مستنقعات شاسعة أو تحسر مياها غامرة فتنطفىء على أعقاب ذلك حياة ملايين من الأرواح كان من الممكن أن تواصل سيرها في نجاح الحياة مستظلة بحماية القوة والصلاح؟. بل أين هذا القانون من الدنيا العريضة التي يزدحم فيها جميع أشكال الموجودات بدءا من أصغر جزئيات الفاسد والضعيف إلى أرقى نماذج الأقوى والأصلح دون أن ينسخ الصالح منها الفاسد عن الوجود؟..

قالوا: فلنقرر إذًا أنه تطور عشوائية وطفرة وليس تطور سمو وصلاح!.. قيل لهم فهلا شدت

الطفـرة الإنـسان ذات مـرة إلى الخلـف بـدلا مـن أن تـنهض بـه دائـما إلى الأعـلى؟.. وهـلا تجـاوزت مـرة واحـدة خـط النظـام الـدقيق الـذي يـسير وفـق خـط مرسوم إلى تحقيق علة غائية وقد علم جميع العقلاء أن «العلـة الغائيـة» تمثـل أعقـد عمليـات التنظـيم والتـدبير؟.. ومـا لهـذه الطفـرة العجيبـة في تـدبيرها أبدعت حياة الإنسان من هلاميات لا شأن لها، ثم ظلت تنهض بها في معارج السمو والتصعيد المـادي والمعنـوي إلى أن أقامته عنـد عتبـة الأسرار الكونيـة، وأورثته علم استغلالها وتسخيرها؟!..

قالوا: فماذا نقول إذا؟.. إنه على كل حال خير تفسير يمكـن أن يتسق مع الظواهر الطبيعية المرئية أمامنا، وهـو عـلى مـا فيـه مـن نقـاط ضـعف وعوامـل نقد، أقرب إلى الفكر العلمي من القول بأن الأرض أو الـسماء انـشقت فجـأة عـن كـائن معقـد الـصنع عجيـب الطويـة، يهـدد الأرض بقوتـه ويطمـح إلى القمر والنجوم بسلطانه!.

أجل.. إنه منطق، ولكنه منطق وهمي، ينسجم مع عقلية ذاك الـذي وضـع نفسه في حلقـة مقفلـة أو حصر نفسه في طريق مسدود. ومن ثم فهو صادق مع نفسه عندما يقول وهو في محبسه ذاك: هذا كل ما أراه أمامي فهل للعقل من سبيل إلا أن يتخير أقرب الحلول؟!..

ولكنه جهل عظيم وخداع خطير أمام مقياس الانطـلاق في دنيـا الحقيقـة كلهـا، بكافـة احتمالاتهـا الـواردة، دون تحكيم للرغبـة ولا للبيئـة ولا للتقاليـد ولا لسلطان المنفعة.

وصورة أخرى

وإليـك صـورة أخـرى لهـذا المنطـق.. ذلـك الموضـوع الـذي تظـل طائفـة كـبرى مـن البـاحثين في حـيرة مـستمرة مـن أمـره ألا وهـو التحقيـق في هويـة الشريعة الإسلامية.

لقد قلبت هذه الطائفة أمر الشريعة الإسلامية عـلى كـل وجـه يمكـن أن يعطـي دلالـة عـلى حقيقتهـا وأصلها، إلا وجهـا واحـدا لم تشأ أن تجعلـه موضـوع بحث مطلقـا، وذلـك هـو وجـه كونهـا وحيـا مـن الله تعـالى بواسـطة جبريـل إلى نبيـه محمـد عليـه الـصلاة والسلام.

وهكـذا، فقـد تكونـت حـول هـذه الطائفـة مـن الأوجـه والاحـتمالات الباقيـة حلقـة مفرغـة مقفلـة، وكان لا بد لها أن تنبش عن الحقيقة التي تعود إليها هوية هذا التشريع ضمن هذه الحلقة فقط.

فما هي تلك الاحتمالات الباقية؟.. إنهااحتمال أن تكون الشريعة الإسلامية طبعة جديدة معدلة عن التشريعات اليهودية، واحتمال أن تكون مقتبسة من التشريع الروماني بعامل احتكاك الجزيرة العربية بما حولها من المستعمرات الرومانية، واحتمال أن تكون انعكاسًا لحضارة سبأ أو شريعة حمورابي.

وإذا كـان الاحـتمال الأول مـردودا بفـصول مبـسوطة مـن البحـوث العلميـة المعروفـة، فليؤخـذ

بالاحتمال الثاني إذا .. أما إذا كشفت البحوث التاريخية الثابتة عن أنه لا مجال للقول بأن الشريعة الإسلامية مقتبسة عن شريعة الرومان، فلا مناص عندئذ من القول بالاحتمال الثالث. ومهما كانت هذه الاحتمالات مدفوعة بسلطان المنطق والعلم، فإنه أولى في ميزان العلم والعقل من القول بأن هذه الشريعة المتكاملة الوافية التي تعكس آثار حضارة باسقة، قد ظهرت في بادية قاحلة، وألفتها أدمغة البادية والصحراء، مع ما هو ثابت من أن فاقد الشيء لا يعطيه(٢).

أجل.. إن هذا أيضا منطق!.. ولكنه منطق من قد سجن نفسه في غرفة ليس فيها من الطعام الا كسرة خبز يابسة، إلى جانب بقية إدام فاسد بشيع، إلى جانب ماء آسن مستقذر، ومن وراء باب الغرفة كل ما تهفو إليه النفس من الطيبات!.. لاجرم أنه – وقد أحكم سد الباب على نفسه – منطقي مع تفكيره عندما يخير نفسه بين الكسرة اليابسة والإدام البشيع، ثم يبرهن لها بما يبصرها من أرض الغرفة وجهاتها الخالية الأربع، على أنه ليس ثمة ما يصلح أن يؤكل إلا هذا وذاك!..

أما الإسلام فقد ربى العقول على التنزه عن هذا

ويظل من هذا المنطق الوهمي تحتضن أكثر القضايا العلمية والفكرية عند الغرب وأشياعهم وعبيدهم من الشرق.

أما الإسلام، فهو بحق، المربي العظيم الذي ينشيء عقول المسلمين على التنزه عن هذه اللعبة التي لا تليق بقداسة العقل الإنساني وحريته.

والرغبة، والمنفعة، والتقاليد، والبيئة – كل ذلك يأتي، فيما يقضي به الإسلام، من وراء السلطان المطلق للعقل.. العقل الصافي عن لقاح المؤثرات أيا كانت ومن أي جهة وفدت..

وحرية العقل – فيما يقضى به الإسلام – أمانة مقدسة استودعها الإنسان. وأي تضييق في مجاله الطبيعي، أو انتقاص من سبله ونوافذه، خيانة كبرى يلقى عليها صاحبها العقاب الرهيب من الله يوم القيامة.

وحرية العقل لا تعرف – فيما يقضى به الإسلام – شيئا اسمه «وجهات النظر»!.. إذ إن وجهات النظر هذه ليست إلا نوافذ في سجون يرى العقل الإنساني في كل منها – إذ يكون سجينا – جانبا من جوانب الحقيقة الواحدة، حيث تتحطم الحقيقة جذاذا بين نوافذ هذه السجون المختلفة.

وصدق الله إذ يعبر بيانه المعجز عن هذا كله بقوله:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

* * *

الهوامش:

(١) انظر «العقل والدين»لوليم جيمس ص:٤ و ٥.

(٢) ألقى صاحب هذا المقال محاضرة في رابطة الحقوقيين بدمشق عنوانها «ذاتية التشريع الإسلامي في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام» لعلها أن تهيا قريبا للنشر.

إعجاز القرآن الكريم

بقلم: الدكتور/ محمد حسين الذهبي

معنى الإعجاز:

تطلق كلمة الإعجاز في اللغة، ويراد بها إثبات العجز وإظهاره.

وإعجاز القرآن الكريم معناه: إثبات عجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله، فيظهر بذلك صدق النبي عليه الصلاة والسلام في دعواه الرسالة، وأن القرآن ليس من كلامه، ولا هو في مقدور أحد، وإنما هو كلام الله عز وجل.

القرآن معجزة النبي الكبرى:

والقرآن معجزة النبي الكبرى، وهو يتميز عن سائر معجزات الأنبياء بأمور:

(١) أنه يحتوي على أصول الدعوة المحمدية، وما يكتنفها من هداية وإرشاد، وذلك أبلغ في الدلالة على النبوة، لأن ما احتواه من ذلك لا يمكن أن يكتسب بالتعلم، وإنما هو بوحي من الله، ومن هنا كان القرآن كافيا، ومغنيا عن كل ما طلبه المتعنتون من معجزات تحديًا له عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

(٢) أن القراء معجزة العقل: لأنه يخاطب العقل دائما ولا يجمد عند الحس كمعجزات الأنبياء السابقين، ولقد نوّه رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بذلك في حديث له فقال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا».

(٣) أن القرآن الكريم معجزة خالدة باقية على مدى الدهر، ضرورة أنه معجزة الدين الخالد، فهو شاهد أبدا بصدق محمد عليه الصلاة والسلام، أما معجزات الأنبياء السابقين فقد كانت تنتهي بانتهاء وقت وقوعها ثم لا يبقى لها أثر بعد ذلك إلا في نفس من شهدها.

القرآن بين تكذيب العرب له وتحديهم به:

ولقد أيّد الله سبحانه نبيه محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعجزة القرآن من أول يوم بعثه رسولًا للعالمين، ولكن قومه كذّبوه وزعموا أن ما يتلوه عليهم من القرآن ليس من عند الله، وقالوا عنه:

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1] فأوحى الله إلى نبيه بقوله:

﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾(٢) وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾(٣).

وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾(٤) فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾(٥).

وقالوا: ﴿شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾(٦) فرد عليهم بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾(٧).

قالوا عنه هذا وأكثر، وردّ الله عليهم بما ذكرنا وأكثر مما يبطل زعمهم، ولكنهم تمادوا في غيهم واستمروا في تكذيبهم وعنادهم فلم يكن بعد ذلك إلا أن يلقمهم حجرا يسدّ أفواههم حتى لا ينبسوا بفرية، ويدمغ عنادهم حتى لا يقوى على أن يتصدى للحق أو يعترض طريقه.

لم يبق إلا أن يتحدا هم الله ويتحدى الإنس والجن جميعا أن يأتوا بمثل القرآن ما دام القرآن في زعمهم من صنع البشر – محمد أو غيره – وليس من عند الله عز وجل.

ولقد جرى ذلك التحدي على تدرج ملحوظ:

تحداهم أوّلًا أن يأتوا بمثل القرآن فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾(٨). فما كان منهم إلا العجز التام.

ثم تنزل معهم في التحدي، فقال آمرا لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقد رموه بالافتراء على الله في نسبة القرآن إليه: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾(٩) فعجزوا كل العجز عن ذلك أيضا.

ثم نزل إلى أدنى من ذلك فقال: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾(١٠). وقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾(١١) فما استطاعوا معارضة ذلك القدر القليل.

ثم نزل إلى أدنى درجات التحدي فقال: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾(١٢) فعجزوا عن أن يأتوا بحديث مماثل له... أي حديث كان، طال أم قصر، ولزمهم العجز عن معارضته هم ومن وراءهم إلى يوم القيامة.

ولم يكن عجزهم هذا ناشئا عن كون القرآن

غريبا عليهم في لغته؛ بل كان من جنس كلامهم وبلغتهم التي يتكلمون بها، ولم يكن عدم معارضتهم له ناتجا عن عدم اهتمامهم بالمعارضة أو عدم اكتراثهم بالتحدي، فقد أثار القرآن اهتمامهم بالمعارضة، وبعث فيهم الرغبة الملحة في قبول التحدي، والعمل على حطمه، والخروج من المأزق الذي وضعهم فيه، بما كان منه من تسفيه أحلامهم بنحو قوله عنهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(١٣) وتحقير آلهتهم بنحو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾(١٤) ومع ذلك الاستفزاز فقد وقفوا عاجزين أمام هذا التحدي، ولم نجد لهم معارضة يمكن أن تجاري أو تداني القرآن في أسلوبه ونظمه، أو في أي جانب من جوانب إعجازه التي سنذكرها، وماترويه لنا بعض كتب الأدب أو غيرها من محاولات لمعارضة القرآن لم تخرج – في الواقع – عن كونها محاولات سخيفة، وليس فيها من براعة النظم، ولا من دقة المعنى شيء مطلقا، وإنما هي هذيان كهذيان المحموم، عار من كل شيء إلا من ركاكة النظم وفساد المعنى.

جوانب الإعجاز في القرآن الكريم:

وجوانب الإعجاز في القرآن الكريم متعددة وهي:

(١) فصاحة كلماته.

(٢) براعة نظمه وجزالة أسلوبه.

(٣) بلاغته في الدلالة على معانيه.

وهذه الثلاثة يمكن أن نجمعها تحت عنوان واحد هو (الإعجاز البياني).

ولا شك أن القرآن الكريم قد تميز عن كل ما عداه من كلام إلهي وغير إلهي بأسلوب فريد، بلغ الغاية في جزالته وبلاغته، ولو جئنا بأبلغ عبارة نطق بها العرب ووضعناها بجانب عبارة في موضوعها جاء بها القرآن الكريم، لوجدنا بين العبارتين فرقا بلاغيا كبيرا، فأبلغ عباراتهم في القصاص «القتل أنفى للقتل» وعبارة القرآن الكريم في هذا الباب ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وقد تناول علماء البلاغة كلتا العبارتين بالتحليل البلاغي وبينوا – بما لا يقبل الشك – أن عبارة القرآن فوق العبارة المأثورة عن العرب بمراتب كثيرة.

وبلغاء العرب – بسليقتهم – يدركون هذا التفوق البياني للقرآن الكريم حتى أن أحدهم – وهو الوليد ابن المغيرة – يسمع القرآن من محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيبهره أسلوبه وبلاغته، ويعجب به أيما إعجاب ويشيع ذلك عنه، فيأتي إليه أبو جهل ويطلب منه أن يقول في القرآن قولا يبلغ قومه أنه منكر له، فيجيب الوليد بقولته المشهورة: «وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم أحد أعلم بالشعر: لابرجزه

ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته».

ولا نطيل بالكلام عن بلاغة القرآن فذلك موضوع واسع تولاه بالبحث والبيان كثير من العلماء، ولهم في ذلك مؤلفات كثيرة ومشهورة.

(٤) اشتماله على حوادث وقعت في الأزمان الغابرة ولم يكن للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علم بها: لا عن معلم، ولا عن كتاب، ولا عن أي طريق أخرى غير القرآن، كقصة موسى وغيره من الأنبياء وفي هذا يقول الله سبحانه مخاطبا نبيه محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدما قص عليه من خبر موسى وقومه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

(٥) اشتماله على أمور غيبية وحوادث مستقبلة أخبر بها وتحقق وقوعها فيما بعد كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(٦) اشتماله على التشريعات الروحية والأدبية والاجتماعية والسياسية والمالية التي كان – ولا زال – لها أكبر الأثر في إصلاح المجتمع الإنساني واستقراره، لبلوغها مرتبة الكمال التشريعي، ولخلوها من كل الثغرات التي تشتمل عليها القوانين الوضعية، وقد ذكرنا عند الكلام عن جوانب الهداية القرآنية كثيرا من التشريعات التي جاء بها القرآن، والتي نظمت علاقة الإنسان بربه وبأخيه الإنسان.

(٧) اشتماله على كثير من العلوم والمعارف التي كشف عنها العلم فيما بعد، ولا زال يكشف عنها إلى اليوم، وسوف يظل يكشف عنها على مدى الدهر وإلى الأبد.

ولا نريد أن نستقصي كل ما حواه القرآن تصريحا أو تلميحًا من علوم كونية، وإنما نكتفي بثلاثة أمثلة نذكرها كشواهد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

المثال الأول:

قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ﴾ فقد فسرها عبد الله بن عباس على ضوء ما وصل إليه العلم في زمانه تفسيرا

تحتمله الآية فقال:

«كانت السماء رتقاء لا تمطر، والأرض رتقاء لا تنبت، ففتق هذه بالنبات، وتلك بالمطر».

وفسرها علماء العصر الحديث على ضوء ما توصلوا إليه من العلم فقالوا:

«قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءا من الشمس، وأن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وأن هذه القطعة – بعد أن مرت عليها أطوار – تكسرت وصارت قطعا، كل قطعة منها صارت سيارا من السيارات، وهذه السيارات طاغت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبتها، والأرض واحدة من هذه السيارات فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات»(١٥).

ولا نكاد نجد تعارضا بين الفهمين، والآية تحتملهما وتتسع لهما وذلك – بلا شك – وجه من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم.

المثال الثاني:

قوله تعالى في الآيتين (٣و٤) من سورة يونس ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ وقوله في الآية (٦١) من سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ أليس في هاتين الآيتين دلالة صريحة على ما توصل إليه العلم الحديث من أن الشمس كوكب مضيء وأنها كالسراج نوره من ذاته وأن القمر كوكب معتم نوره مستمد من غيره؟ وهل يستطيع محمد – عليه الصلاة والسلام – وهو النبي الأمي، والعلم بالأكوان والأفلاك ما زال في مدرج الطفولة – أن يقرر هذه الحقيقة من تلقاء نفسه؟ كلا، إنه من علم الله العليم الخبير... أودعه في القرآن فكان من وجوه إعجازه.

المثال الثالث:

قوله تعالى في الآيتين (٣و٤) من سورة القيامة ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ يقرأ العربي هذه الآية في عصر نزول القرآن فيفهم منها أنها تدل على أن الله قادر على أن يعيد الإنسان عند البعث بشرا سويا بكل أعضاء جسمه وعلى صورتها الأولى حتى ما دق خلقه من هذه الأعضاء وهو البنان.

ونقرؤها اليوم على ضوء العلم فنراها تنطوى على ما توصل إليه العلماء من أن (بصمات) أنامل اليد لا تتشابه عند بني الإنسان فكل فرد له بصمات يتميز بها عن غيره وممكن أن تكشف عن شخصيته، وإعادة هذه البصمات المختلفة المتمايزة عند الحياة الثانية على ما كانت عليه لكل فرد عند الحياة الأولى شيء لا يعظم على الله سبحانه، ولا شك أن انطواء الآية على هذه الحقيقة العلمية التي لم يكشف عنها العلم إلا حديثا ضرب من ضروب الإعجاز العلمي

للقرآن الكريم.

(٨) سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض ولا شك أن هذا جانب من جوانب إعجاز القرآن الكـــريم فالكتـــاب حافـــل بالقـــضايا العقليـــة والتـشريعات الفقهيـة والحقـائق العلميـة والتـاريخ والقصص، والأمثال، والأخبار عن وقائع ماضية وحاضرة ومستقبلة، وهو في ذلك كله صادق لا يرقى إليه كذب، مصيب لا يعتريه خطأ، واضح لا يشوبه لبس، متناسق لا يعترض نسقه تناقض أو تعارض، مؤتلف غير مختلف.

ولا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال لكتاب جمع الكثير من ألوان المعرفة وضروب الهداية والإرشاد، وضم الكثير من القصص والأخبار ووزعها وكررها في مواضع شتى على نحو من الإيجاز تارة ومن الإطناب أخرى، مع تفاوت وتغاير وتفنن في التعبير يجعل القارئ مشدودا دائما إلى قراءته وسماعه دون سآمة أو ملل أو إحساس بنبوة ولا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال إلا للقرآن الكريم: لأنه كلام الله الذي لا يضل ولا ينسى، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(١٦).

هذه هي جوانب الإعجاز للقرآن الكريم، أو هي أهم جوانبه.

ولقد نرى بعض العلماء يذهبون إلى أن إعجاز القرآن لا يرجع إلى أي من هذه الوجوه المذكورة وإنما يرجع إلى الصرفة، ومعنى ذلك – على حد قولهم – أن القرآن الكريم كان في متناول العرب أن يأتوا بمثله؛ ولكن الله صرفهم عن معارضته فصاروا بذلك عاجزين عنها، وهذا قول باطل، لأنه يلزم عليه:

(١) أن يكون القرآن في مستوى كلام البشر، وهذا مخالف للواقع، وأرباب البلاغة من المشركين أنفسهم قد اعترفوا بأنه في أعلى درجات البلاغة التي لا يتطاول إليها أحد منهم، وفي وصف الوليد بن المغيرة للقرآن – وقد ذكرناه آنفا – ما يشهد بذلك والفضل ما شهدت به الأعداء.

(٢) أن يكون المعجز في الحقيقة هو الله وليس القرآن، مع أن آيات التحدي تكاد تكون صريحة في أن الإعجاز راجع إلى القرآن ذاته، وعلى ذلك انعقد الإجماع.

(٣) أن الإنـــس والجـــن – بـــصرفهم عـــن المعارضة بحيث أصبحوا عاجزين عنها – صاروا بمنزلة الموتى، وحينئذ لا يكون للتحدي معنى ولا فائدة.

ولقد نرى – أيضا – بعض العلماء يقصرون إعجاز القرآن على جانب واحد من جوانب الإعجاز المذكورة، وهذا – إذا أخذ على ظاهره – خطأ بيّن؛ إذ إن كل ما ذكرناه من جوانب الإعجاز

متحقق في القرآن الكريم.

والظن بهؤلاء الذين قصروا إعجاز القرآن على جانب من الجوانب التي ذكرناها: أنهم لم يقصدوا بذلك أن القرآن ليس فيه من جوانب الإعجاز إلا هذا الجانب فقط، وإنما قصدهم: أن هذا الجانب الذي اقتصروا عليه يحقق الإعجاز للقرآن الكريم، وهذا لا يمنع من وجود جوانب أخرى تحقق نفس الشيء بانضمام بعضها إلى بعض يكون الإعجاز أتم وأقوى.

بقيت حقيقة يجب أن نعلمها، وهي:

أن إعجاز القرآن من ناحية فصاحة كلماته، وبراعة نظمه، وجزالة أسلوبه، وبلاغته في الدلالة على معانيه أمر متحقق في كل سورة؛ بل وفي كل آية تفيد فائدة تامة أما ما وراء ذلك من جوانب الإعجاز كاشتماله على أمور غيبية مستقبلة وقعت بعد كما أخبر عنها، واشتماله على التشريعات الحكيمة، وانطوائه على حقائق علمية لا يزال العلم الحديث يكشف عنها، فهذا لا يتحقق في كل آية ولا في كل سورة وانما يتحقق في القرآن جملة، ومن هنا حقق العلماء أن التحدي بأقصر سورة منه أو ما يعادلها أو بأي حديث مثله مهما قصر كان للعرب أوّلًا، لأنهم أرباب اللسان، وفرسان البيان، فإن عجزوا هم عن معارضته فغيرهم أعجز، والتحدي بهذا القدر من القرآن راجع إلى فصاحة كلماته وبراعة نظمه، وجزالة أسلوبه وبلاغته، وهو ما عبرنا عنه بالجانب البياني، وهذا كله متحقق – كما قلنا – في القدر المتحدى به أيّا كان.

أما غير ذلك من جوانب الإعجاز التي تتحقق في القرآن ككل ولا تتحقق في كل أبعاضه، فذلك يدركه كل إنسان عربيًا كان أم غير عربي، وهم جميعا متحدّون بالقرآن جملة ومن كل هذه الجوانب بقوله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(١٧).

* * *

الهوامش:

(١) في الآية ٥ من سورة الفرقان.
(٢) في الآية ٦ من سورة الفرقان.
(٣) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت.
(٤) في الآية ١٠٣ من سورة النحل.
(٥) في الآية ١٠٣ من سورة النحل.
(٦) في الآية ٢٠ من سورة الطور.
(٧) في الآية ٦٩ من سورة يس.
(٨) في الآية ٨٨ من سورة الإسراء.
(٩) في الآية ١٣ من سورة هود.
(١٠) في الآية ٣٨ من سورة يونس.
(١١) الآيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة البقرة.
(١٢) الآية ٣٤ من سورة الطور.
(١٣) من الآية ٤٤ من سورة الفرقان.
(١٤) من الآية ٧٣ من سورة الحج.
(١٥) انظر التفسير والمفسرون، ج٣، ص٢٧٠.
(١٦) في الآية ٨٢ من سورة النساء.
(١٧) الآية ٨٨ من سورة الإسراء.

الشخصيَّة الإسلاميّة في معركة إثبات الذات

بقلم: الأستاذ/ محمود مهدي الإستامبولي

لقد حرص الإسلام – هذا الدين الواعي – حرصا عظيما على توطيد دعائم الشخصية الإسلامية لتبقى متميزة عن غيرها بمعالمها الواضحة كالشمس بين الكواكب. صونا لبقاء الأمة الإسلامية وحمايتها من الانحلال، فإنه ليس أسرع لضياع الأمة – أية أمة – من فقدان شخصيتها وذوبانها في تقاليد أمة أخرى وعاداتها.

لذا نجد المستعمرين يسارعون – أول ما يسارعون – إلى فرض عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم على الشعوب المستعمرة بمختلف الأساليب والوسائل، من أجل ضياعها وتلاشيها، وذهاب ريحها، ومن ثم اعتناق دين هؤلاء المستعمرين والميل إليهم لتعيش هذه الشعوب على مائدتهم، وتصبح خدمًا لهم، كما حدث لزنوج أمريكا الذين يحيون اليوم عيشة الذل والاسترقاق، على الرغم من تشبههم بالغربيين، وتقليدهم لهم في كل شيء.

إن الغربيين ينظرون إلى غيرهم – ولو اعتنقوا دينهم – على أنهم برابرة وفقًا للمبدأ الروماني الذي قسم العالم قسمين: (غربيين وبرابرة).

وينبغي أن يتأكد المسلمون أن الغربيين لا يزالون يحملون نفوس الرومان وشراستهم وهمجيتهم، وإن تقدموا، وتقدمت بهم العصور، إنما يتميزون عليهم بأنهم يحاربون بالقذائف والصواريخ، بدلا من الرماح والحراب، فهم لذلك أكثر إجراما، وأشد فتكا من جدودهم الأقدمين، وقد رأينا جرائمهم في سورية وفلسطين والجزائر وعمان وليبيا وغيرها من البلدان الإسلامية.

وعلى الرغم من بغض الغربيين للمسلمين كشرقيين، فهم يرغبون في تنصيرهم – والعياذ بالله – من أجل تحطيم معاقل الدفاع في نفوسهم، لما يعلمون من قوة الإسلام في نفوس أتباعه، وقد أدركوا ذلك في فتوحات المسلمين لبلاد الشام وفارس، وقضائهم على إمبراطوريتين من أعظم إمبراطوريات العالم القديم، وجربوه في حروبهم الإستعمارية في شمال إفريقية، وفي الشرق الأوسط، لذلك فهم يرغبون في تخلي المسلمين عن دينهم، وقد خصصوا من أجل ذلك جميع وسائل الإعلام من كتب ومجلات وإذا عات وأفلام، وحشدوا جميع قواهم المادية والمعنوية من أجل تحقيق ذلك في أضخم غزو ثقافي وعسكري عرفه العالم.

لقد أعلن الإسلام حربا لا هوادة فيها على تقليد المسلمين لغيرهم وأعلن أن «من تشبه بقوم فهو منهم» وفي هذا من التهديد ما فيه، وقد كان حرص هذا الدين العظيم على تمييز الشخصية المسلمة على غيرها من أول يوم مدعاة دهشة أعدائه حتى راح اليهود يقولون في عصر النبي ﷺ: «ما يريد محمد أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه».

ومما يؤسف له، ويبعث في النفس الأسى والألم أن نجد المسلمين اليوم – أغلب المسلمين – على الرغم من جميع التوجيهات الإسلامية في التحذير من التشبه بغيرهم قد عم بينهم داء التشبه بهم في جميع مرافق حياتهم، حتى بات من المتعذر التمييز بينهم وبين الأجانب في عاداتهم وتقاليدهم، وغدوا تبعًا للغرب في كل ما يأتي به، حتى ولو كان فيه ضياع الأخلاق وانحلال الذات ومحاربة اقتصاديات الوطن الإسلامي.. وهم لايعبؤون بذلك كله ظانين أن الأمر بسيط لا خطر فيه ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

وأسوق فيما يلي بعض الآيات والأحاديث في النهي عن التشبه بالكفرة والتحذير من تقاليدهم.

جاء في القرآن العظيم:

* ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ – الخطاب لموسى وهارون – ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

* وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ.

* وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ.

* .. وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ – أي أهواء الكفار – وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ.

* وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

* ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.

أما الأحاديث في قول الرسول ﷺ:

* لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه.

قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب؟ قال: فهل الناس إلا هم؟

* خالفوا اليهود؛ فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا في خفافهم.

* إياكم ولبوس الرهبان، فإنه من تزيا بزيهم أو تشبه فليس مني.

* .. ومن تشبه بقوم فهو منهم.

ومما ينبغي التنبه إليه بهذه المناسبة أن التهافت على تقاليد الغربيين أو التشبه بهم في عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم قد بلغ أشده في زماننا ظنًا منا بأن ذلك يلحقنا بركابهم ويجعلنا مثلهم ويجلب لنا احترامهم

وهذا ظن خاطئ[1]، فإن تقليدهم والتشبه بهم في هذه العادات والتقاليد لا يزيدهم إلا احتقارًا لنا، بسبب فقدان شخصيتنا وتلاشيها أمامهم، شأننا شأن القردة التي تضحك منها الناس نتيجة تقليدها لهم؟

وكذلك هذا التقليد، وهذا التشبه لا يجعلاننا أقوياء أيضا، لأن القوة بالعلم الصحيح، والاستعداد المادي العظيم والصناعة المهنية والعسكرية، وكل ذلك تراث إنساني مشترك من واجبنا اقتباسه وإلا كنا متأخرين وضعفاء في الدنيا وآثمين عند الله يوم القيامة.

ولنعلم أن الغربيين لا يحترمون ولا يهابون إلا القوي بصرف النظر عن عاداته وتقاليده.

ومما يؤسف له أن هذه الحضارة الغربية المادية التي بهرت أنظار الكثيرين وخدعت عقولهم، حتى راحوا يطالبوننا بالارتماء بين أحضانها، والأخذ بخيرها وشرها تحمل في طياتها جراثيم الانهيار والسقوط كما تنبأ لها علماء الغرب أنفسهم بسبب انهماكها باللذات وانصرافها إلى المادة، وتخليها عن القضايا الدينية والقيم الروحية.

ولنستمع الآن إلى شهادات الفلاسفة والمؤرخين المعاصرين في هذه الحضارة التي زهدت الكثيرين من المسلمين المغفلين في إسلامهم نتيجة مختلف أنواع الدعاية والإعلام حتى ظنوها المثل الأعلى الذي ليس بعده مطمع لطامع.

جاء في كتاب «فلسفة الحضارة»:

«.. الخاصة المروعة في حضارتنا هي أن تقدمها المادي أكبر بكثير من تقدمها الروحي، لقد اختل توازنها، فالاكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل، قد أحدثت ثورة في العلاقات بين الأفراد بعضهم مع بعض، وبين الجماعات، وكذلك بين الدول، فأثرت معارفنا، وازدادت قواتنا إلى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله، وبهذا أصبحت أحوال الناس المعيشية أفضل من عدة نواح، لكن حماستنا للتقدم والمعرفة وأسباب القوة التي بلغناها، تصور الحضارة تصورًا ناقصًا معيبًا، فإننا نغالي في تقدير إنجازاتنا المادية ولا نقدر أهمية العنصر الروحي في الحياة حق قدره.

ولكن الحقائق بدأت تدعونا إلى التفكير، إنها تقول بلسان حاد – : إن الحضارة التي تنمو فيها النواحي المادية، دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ في ميدان الروح، هي أشبه ما تكون بسفينة اختلت قيادتها، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي عليها».

وقال «أرنولد تونبى» المؤرخ الحضاري المعاصر في كتابيه: «الحضارة والغرب» و«الحضارة في محنة».

«إن الحضارة الغربية تمر الآن في طور من التدهور والانحلال الذي مرت به الإمبراطورية الرومانية من قبل، من أجل ذلك كانت فنون

الصناعة والاقتصاد وغيرهما من المعارف علوما غير كافية لتوفير أسباب الاستقرار والسعادة للمجتمع الإنساني، وكانت الروابط الروحية والخلقية والفكرية هي العمد التي يقوم عليها صرح المجتمع ويتماسك بها بناؤه».

وقد عبر العالم النفساني «قلدوكال» عن ضلال الحضارة الحديثة وخلوّها من الهدف بقوله:

«إن سيرنا أشبه بسير طائرة تقطع محيطا عظيما بسرعة فائقة، ومع أن ملاحيها لا يعلمون أين هم؟ ولا إلى أين يتجهون، فإنهم يستمرون في السير، جادين في استخدام آلاتهم، ومؤملين أن ذلك سوف يؤدي بكيفية ما إلى نتيجة ما»(٢). وهيهات هيهات فإن السقوط محتم.

ومع هذه الحقائق نرى أكثر زعماء العالم الإسلامي وقادته، لا يزالون يبذلون الجهود الجبارة والأموال الطائلة بقصد السير في طريق الغرب مما كان له أعظم الأثر في انحطاط المسلمين وشقائهم.

وكان الجدير بهؤلاء القادة والزعماء للعالم الإسلامي، وهم حملة أعظم تراث إسلامي وذخر حضاري، ونظام سماوي أن يقودوا قافلة البشرية الضالة نحو المدنية الصحيحة بدل أن يكونوا مقلدين لغيرهم من السائرين في طريق الضلال والهلاك.

وما أروع ما قاله المستشرق «لويس ماسينيون»:

«.. ومن حق العرب علينا نحو ضيوفهم، والوافدين عليهم من مثلي أنا والأستاذ فانتاجو، أن نرفع الصوت عاليا طالبين إليهم المقاومة، أن يقاتلوا هذه الدعاية المذلة التي تقترح عليهم التنازل عن شرفهم وتراثهم، والاستسلام أمام القوة الغربية ورؤوس الأموال المصرفية التي تطلب إليهم الانسجام في طريقة تفكيرهم وعملهم مع هذه الحضارة الكاذبة، حضارة الإنسان الآلي التي لم تعد تؤمن بنفسها أو بالذات الإلهية، وتصبو إلى إخضاع العالم إلى نظامية ثقافية أمريكية بلهاء. إن هذا الإنتاج الصناعي المغشوش سيسقط سريعًا وشيكًا، ليصمد العرب فالعالم بحاجة إليهم»(٣).

ويطيب لي بعد هذا أن أضع أمام القارئ بعض الحقائق التي يقررها هذا الرجل الذي أسلم وفقه الإسلام مع فقهه بالحياة..

يقول الأستاذ محمد أسد(٤):

«إن السطحيين من الناس فقط ليستطيعون أن يعتقدوا أنه من الممكن تقليد مدنية ما في مظاهرها الخارجية من غير أن يتأثروا في الوقت نفسه بروحها، إن المدنية ليست شكلا أجوف فقط، ولكنها نشاط حي وفي اللحظة التي نبدأ فيها بتقبل شكلها، تأخذ مجاريها الأساسية ومؤثراتها الفعالة تعمل فينا، ثم تخلع على اتجاهنا العقلي كله شكلا معيّنًا، ولكن ببطء، ومن غير أن نلحظ ذلك.

ولقد قدر الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هذا الاختيار حق قدره حينما قال: «من تشبه بقوم فهو منهم». وهذا الحديث المشهور ليس إيماءة أدبية

فحسب؛ بل هو تعبير إيجابي يدل على أن لا مفر من أن يصطبغ المسلمون بالمدنية التي يقلدونها..

إن الميـل إلى تقليـد التمـدين الأجنبـي نتيجـة الشعور بالنقص – هذا، ولا شيء سواه، ما يصاب به المسلمون الذين يقلدون المدنية الغربية..

وكما يستطيع المسلم إحياء الإسلام يجب أن يعيش عالي الرأس، يجب عليه أن يتحقق أنه متميز، وأنه مختلف عن سائر الناس، وأن يكون عظيم الفخر لأنه كذلك، ويجب عليه أن يكد ليحتفظ بهذا الفارق على أنه صفة غالية، وأن يعلن هذا الفارق على الناس بشجاعة بدلا من أن يعتذر عنه بينما هو يحاول أن يذوب في مناطق ثقافية أخرى. على أن هذا لا يعني أن المسلمين يجب أن يصموا آذانهم عن كل صوت يأتي من الخارج، فإن أحدنا يستطيع أن يتقبل مؤثرات إيجابية جديدة من مدنية أجنبية ما، من غير أن يهدم مدنيته ضرورة، والنهضة الأوروبية أحسن مثل في هذا الباب، فقد رأينا كيف أن أوربة تقبلت المؤثرات العربية فيما يتعلق بالعلم وأساليبه عن طيب خاطر، ولكنها لم تقبل المظهر الخارجي ولا روح الثقافة العربية قط.. الخ.

ثم يقول: «وفي هذا العالم المملوء بالآراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافية المتعارضة لا يستطيع الإسلام أن يظل شكلا أجوف. لقد انقضى نومه السحري الذي دام أجيالا، فيجب أن ينهض أو يموت. إن المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترق الطرق، إنه يستطيع أن يظل واقفا مكانه؛ ولكن معنى هذا أنه سيموت جوعا. إنه يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان: «نحو المدنية الغربية» ولكنه حينئذ يجب أن يودع ماضيه إلى الأبد، أو إنه يستطيع أن يختار الطريق التي كتب عليها «إلى حقيقة الإسلام»، إن هذه الطريق وحدها هي التي تستميل أولئك الذين يعتقدون بماضيهم، وباستطاعتهم التطور نحو مستقبل حي.

أجل ينبغي أن يختار المسلمون من جديد الطريق التي كتب عليها «إلى حقيقة الإسلام». فليس طريق سواها تضمن لهم عزتهم ومجدهم، وقد جربوه في الماضي، فوحد كلمتهم وجعلهم سادة الدنيا وأساتذة العالم، وجربوا غيره فضلوا وشقوا وباءوا بالخزي والعار.

* * *

الهوامش:

(١) قال الدكتور طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر (ج١ ص٤٥) لا.. لكن السبيل إلى ذلك ليست في الكلام يرسل إرسالا، ولا في المظاهر الكتابة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا النواء – وهي واحدة فذة ليس لها تعدد وهي: أن نسير سير الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها (كذا) حلوها ومرها، وما يحب منها ويكره، وما يحمد منها وما يصاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخادع؟؟..

(٢) نقلا عن كتاب اتجاهات في التربية الحديثة للأستاذ محمد فؤاد جلال (ص٣٦).

(٣) نقلا عن كتاب المعجزة العربية لماكس فانتاجو (ص٥).

(٤) في كتابه الإسلام على مفترق الطرق (ص٨١-٨٦).

سماحة حاكم وتعفف عالم

بقلم: الدكتور/ عبد الرحمن عميرة

كان أبو بكر المحلي يتولى نفقات أبي المسك كافور[1] الأخشيدي حاكم مصر. وكان له في كل عيد أضحى عادة هي أن يسلم إلى أبي بكر بغلاً محملًا ذهبًا وصحيفة تتضمن أسماء قوم – يرى أنهم في حاجة إلى المساعدة المادية من قبل الدولة.

يقول أبوبكر: وكان يمشي معي صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل، وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل، حتى أسلم ذلك إلى من تضمنت اسمه الصحيفة، فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة وأقول: الأستاذ أبو المسك كافور الأخشيدي يهنئك بالعيد ويقول لك: اصرف هذا في منفعتك، وأدفع إليه ماجعل له، وفي آخر وقت زاد كافور في الصحيفة اسم الشيخ أبي عبد الله بن جابار، وجعل له في ذلك العيد مئة دينار، فطفت في تلك الليلة وأنفقت المال في أربابه ولم تبق إلا صرة ابن جابار، فجعلتها في كمي، وسرت مع النقيب، حتى أتينا منزله بظاهر القرافة فطرقت الباب فنزل إلينا الشيخ وعليه أثر السهر فسلمت عليه، فلم يرد عليَّ.

وقال: ما حاجتك..؟

قلت: الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام.

فقال: والي بلدنا..؟

قلت: نعم.

قال: حفظه الله، الله يعلم أني أدعو له في الخلوات وأدبار الصلوات بما الله سامعه ومستجيبه.

قلت: وقد أنفذ معي نفقة وهي هذه الصرة، ويسألك قبولها لتصرف في مئونة هذا العيد المبارك.

فقال: نحن رعيته. ونحبه في الله تعالى، وما نفسد هذه المحبة بعلة.

فراجعته القول فتبين لي الضجر في وجهه والقلق، واستحييت من الله أن أقطعه عما هو عليه من عبادة فتركته وانصرفت.

قال: فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب، وهو ينتظرني، فلما رآني.

قال: إيه يا أبا بكر.

قلت: أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دعيت لك في هذه الليلة وفي اليوم الشريف.

فقال: الحمد لله الذي جعلني لإيصال الراحة إلى عباده. ثم أخبرته بامتناع ابن جابار.

فقال: نعم هو جدير لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم.

ثم قال لي: عد إليه واركب دابة من دواب النوبة واطرق بابه، فإذا نزل إليك، فإنه سيقول لك:

ألم تكن عندنا...؟ فلا ترد عليه جوابًا ثم استفتح واقرأ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾[٢].

يا ابن جابار، الأستاذ كافور يقول لك:

«ومن كافور العبد الأسود... ومن هو مولاه ... ومن الخلق ...؟ ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة تلاشى الناس كلهم هٰهنا».

أتدري من هو معطيك؟ وعلى من رددت... أنت ما سألت، وإنما هو أرسل إليك...؟ يا ابن جابار: أنت ما تفرق بين السبب والمسبب.

قال أبو بكر: فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل إليَّ.

فقال لي مثل لفظ كافور: ألم تكن عندنا...؟

فأضربت عن الجواب وقرأت طه، ثم قلت ما قال لي كافور، فبكى وقال لي: أين ما حملت...؟ فأخرجت الصرة، فأخذها وقال: «علمنا الأستاذ كيف التصوف».

قلت له: أحسن الله جزاءك ثم عدت إليه فأخبرته بذلك، فسرَّ وسجد شكرًا لله تعالى.

وقال: الحمد لله على ذلك[٣].

حاكم المسلمين، وعالم المسلمين يتمذهبان بمذهب الإسلام ويتأدبان بأدب النبوة ويلتقيان على الخير العام، الخير العام للإسلام والمسلمين والخير العام للأسرة الإنسانية كلها.

حاكم لا يغفل عن الرعية، ولا ينسيه صولجان الحكم ضعف الضعيف أو حاجة المحتاج، ويؤقت لعطيته ويرصد لها المناسبة السعيدة حتى تكون البسمة شاملة والفرحة عامة.

وعالم محتاج ولكنه لا يطلب، وتحمل إليه العطية فيرفض، حتى يتحقق بها خالصة لوجه. إنهم عملقة الإسلام ممن حققوا العبودية الخالصة لله.

* * *

الهوامش:

(١) كافور بن عبد الله الأخشيدي أبو الملك الأمير المشهور، صاحب المتنبى. كان عبدًا اشتراه الأخشيد ملك مصر سنة ٣١٢هـ وكان فطنًا ذكيًا حسن السياسة أخباره كثيرة، تولى إمارة مصر مدة عشرين عامًا قام في أكثرها بتدبير المملكة في ولاية أبي القاسم ثم أبي الحسين ابني الأخشيدي وتولاه مستقلًا سنتين وأربعة شهور، وكان يدعى له على المنابر بمكة ومصر والشام توفى بالقاهرة عام ٣٥٧هـ ودفن بالقدس. وكان وزيره ابن الفرات. قال الذهبي: كان عجبًا في العقل والشجاعة. [راجع دول الإسلام ١٧٣:١].

(٢) سورة طه الآية ١-٦.

(٣) معركة المصحف للأستاذ/ محمد الغزالي.

* * *

العمرة

بقلم: الأستاذ الشيخ محمد محمد الشرقاوي

كانوا يسمّونها قديمًا «الحج الأصغر» ومعناها زيارة البيت الحرام بقصد التعظيم والتحية، والتقرب من هذا السبيل إلى رب البيت العتيق، وكثيرا ما قرنت بالحج في مقام التعبد والذكر.. ومن ذلك حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيه تقول للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله.. هل على النساء من جهاد..؟ قال: «نعم.. عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة»، وبهذا الأسلوب نطق القرآن الكريم ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ..﴾ ويقولون: حج فلان واعتمر، ويقال: الحجّاج والعمّار..

وأرجح الآراء أنها سنة مؤكدة (كما يرى المالكية)، وأن من أتى بها مرة في العمر كله.. فقد أقام السنة.. وكلما تكرر فعلها.. تضاعف أجرها، وإن أفضل أوقاتها إبان شهر رمضان.. وهذا بالنسبة لمن يؤديها منفردة عن الحج .. أما من جمعها مع الحج في أشهر الحج فلا شك في أفضلية هذا الجمع على الانفراد (على رأي الحنفية) وهذا يعني أن من أراد الإتيان بالعمرة على أحسن وجوهها منفردة ففي رمضان، ومن أراد الإتيان بالحج على أحسن وجوهه، قرنه بالعمرة في أشهره، وإن كان للمالكية والشافعية رأي آخر.

وقد فعلها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته أربع مرات كلهن بعد الهجرة.. وكلهن في ذي القعدة.. كلهن من خارج مكة.. بمعنى أنه أحرم بهن جميعًا في شهر ذي القعدة..

ولم يحرم الرسول عليه الصلاة والسلام بعمراته في رمضان، مع أنه أرشدنا إلى أن شهر الصيام هو أفضل أوقات العمرة.. لأن رحمته بأمته اقتضته أحيانا أن يترك الشيء لا رغبة عنه.. بل تلطفا بأمته لأنه كان بالمؤمنين رحيمًا.. حتى لا تقع الأمة في الحرج بمواظبتها على ذلك، ونظير هذا قوله عليه الصلاة والسلام: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة).

روى ابن عباس رضي الله عنهما عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «عمرة في رمضان تعدل حجة»وفي طريق لمسلم «.. تقضي حجة» أو «حجة معي» وفي رواية لأبي داود «تعدل حجة معي من غير شك».

وكانت عمرات الرسول عليه الصلاة والسلام

في فترات متباعدة.

الأولى: عمرة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، وقد صده المشركون عنها عنادًا وتعنّتًا.. وانتهى الأمر إلى صلح الحديبية الشهير.. ونحر الرسول الهدي، وحلق هو وأصحابه، ورجع إلى المدينة.

الثانية: عمرة القضاء.. وكانت في العام التالي، لتكون قضاء عما فاته في السنة السابقة، وقد سماها بهذا الاسم جمهور الصحابة والسلف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

الثالثة: عمرة الجعرّانة حيث قسم غنائم حنين، وذلك أنه في عودته من تلك الغزوة سنة ثمان دخل مكة ليلًا بهذه العمرة.. وخرج منها ليلًا إلى الجعرانة.. ومن ثمة خفيت على كثير من الناس.

الرابعة: عمرته التي قرن بها حجته الأخيرة في السنة العاشرة، والتي سميت حجة الوداع وقد أحرم بها في ذي القعدة، وفعلها في ذي الحجة.

وليس لأدائها وقت محدد.. فجميع السنة وقت للأداء.. الليل والنهار في ذلك سواء.. ما عدا خمسة أيام يكره فيها فعلها وهي يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق الثلاثة، ومع هذا فلو أداها في هذه الأيام الخمسة صح أداؤها، ويبقى محرما بها فيها.. لأن الكراهة ليست لذات العمرة فهي عبادة.. وإنما لغيرها.. وهو تعظيم أمر الحج وتخليص وقته له.. فيصح الشروع فيها مع الكراهة.. قال ابن عباس رضي الله عنهما «يوم عرفة ويوم النحر وثلاثة أيام التشريق.. اعتمر قبلها أو بعدها ما شئت».

والصحيح أنها سنة مؤكدة لا فريضة[1]... لأن الفرض هو الحج وحده بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقد نزلت هذه الآية الكريمة في آخر السنة التاسعة بعد العاشر من ذي الحجة على أرجح الأقوال.. وبها فرض الحج.. إذ كان وقته الصحيح قد حل أوانه، ودخل مرحلة التوقيت الحقيقي.. وذلك أن الزمان بعد نزول هذه الآية الكريمة مباشرة، كان قد دار دورته ولفّ لفته بعد أن أخرجه عن سننه المنظمة.. ما أدخله أهل الجاهلية من النسيء الذي كانوا يقدمون فيه بعض الشهور على بعض ويتلاعبون بمواقيتها.. حتى انتهى به المطاف في السنة العاشرة للهجرة إلى وضعه الطبيعي كما خلقه الله تعالى يوم فطر السماوات والأرض، وبذلك استقر يوم عرفة في التاسع من ذي الحجة في السنة العاشرة، وهذا هو السر في تأخير فريضة الحج إلى تلك السنة الأخيرة من حياته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.. إذ علم الرسول ﷺ من ربه أن الزمان سيستدير كهيئته، فتعود عشر ذي الحجة إلى مقرها من العام، ويشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض» ولذا لم يحج عليه الصلاة والسلام في السنة التاسعة..

[1] ويرى الشافعي وأحمد أنها فرض كالحج. بينما يرى أبو حنيفة واجبة وقد سار الكاتب في ذلك على رأى مالك (الوعي).

وإنما أرسل لإمارة الحج أبا بكر رضي الله عنه.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ فقد نزلت في السنة السادسة من الهجرة، وهي لا تفيد إلا وجوب الإتمام، وذلك بعد الشروع فيهما.. وكل من شرع في عبادة ولو نفلا وجب عليه إتمامها. بقوله تعالى ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ واقترانها بالحج لا يفيد حتمية الوجوب، فهو مثل قولنا «صُمْ رمضان وستًا من شوال»!!

وتتركز أعمال العمرة في الأمور الآتية على الترتيب: الإحرام من الميقات، والطواف سبع مرات، ثم السعي بين الصفا والمروة سبعا كذلك، وأخيرًا الحلق أو التقصير الذي تنتهي به أعمال العمرة. والمرأة في جميع ذلك كالرجل غير أنها لا تكشف رأسها، وتكشف عن وجهها، ولا ترفع صوتها بالتلبية ولا ترمل في الطواف ولا تهرول بين الميلين ولا تحلق رأسها ولكن تقصر.. ويرى أبو حنيفة رضي الله عنه، أن كل من يمر بمواقيت الإحرام في طريقه إلى مكة لا يجوز له المرور إلا محرما بحج أو عمرة، ووافقه في ذلك مالك والشافعي في القديم إلا إذا تكرر مروره لقضاء مصالحه.. فلا يلزمه الإحرام في كل مرة.

وبهذا صارت العمرة تعبيرا عمليا عن تحية البيت الحرام، اتخذ طابعا منظما لا ينبغي لغير الكعبة ولا يليق بمن يؤم الأراضي المقدسة أن يجهله أو يتجاهله، ولقد تشدد بعض الأئمة في المطالبة بالعمرة حتى جعلها الشافعي وأحمد رضي الله عنهما فريضة كالحج، وأبو حنيفة رضي الله عنه قد رأى فيها عبادة فوق السنة ودون الفرض وسماها «واجبا»، ومالك رضي الله عنه قال: إنها سنة مؤكدة مستدلًا بما روى أن أعرابيًا قال يا رسول الله: العمرة واجبة مثلًالحج؟ قال «لا، ولكن أن تعتمر خير لك» وروي عنه عليه الصلاة والسلام «الحج جهاد والعمرة تطوّع» ويدل لذلك قراءة علي وابن مسعود والشعبي «وأتموا الحج والعمرة لله» برفع العمرة ونصب الحج كأنهم قصدوا بذلك إخراجها من حكم الحج وهو الوجوب.

وبعد:

فقد تبين مما تقدم:

أن العمرة سنة مؤكدة. وأنه لا وقت لها.. ويكره إيقاعها في خمسة أيام: يوم عرفة، ويوم النحر وثلاثة أيام التشريق.

وأن الرسول اعتمر أربع مرات كلهن في شهر ذي القعدة، وأن أفضل أوقات أدائها هو شهر رمضان.

وأن أعمالها: إحرام، وطواف، وسعي بين الصفا والمروة، وحلق، وتقصير.

وأن من الواجب على كل من جاوز المواقيت إلى مكة (إلا أصحاب المصالح فيها) أن يحرم بحج أو عمرة تعظيمًا للبيت، ورب البيت ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾.

تطور القضاء عند العرب

بقلم: الأستاذ محمد شمس الدين(*)

عرف العرب القضاء – أحد مقومات دولتهم الكبيرة – مؤسسة تطورت وازدهرت، ولم تلبث بعامل التفاعل الحضاري والنمو الذاتي أن أصبحت في أواسط العصر العباسي على شأن عظيم من الرقي تنظيمًا وشمولًا.

ولا بد للباحث في تأريخ القضاء عند العرب من أن يرجع قليلا إلى ما قبل الإسلام حيث لم يكن للقضاء شخصية مميزة، وحيث كان نظام التحكيم السائد آنذاك، هو كل شيء.

والواقع أن التحكيم على ما عرفته الجاهلية لا يعد قضاء بالمعنى الموضوعي والاصطلاحي، وإنما يصح اعتباره مخرجًا يلجأ إليه المتخاصمون لحل قضاياهم، يرتكز عنصر «الإلزام» فيه على رضى الطرفين، وليس على القوة التي يتمتع بها حكم القاضي، إذ ينفذ بالإكراه عند التمتع.

ولمعرفة ميزات كل من القضاء والتحكيم على وجه دقيق نذكر الفوارق التالية:

أولا: القضاء منصب رسمي، ومظهر من مظاهر الدولة وتنظيماتها، أما نظام التحكيم فعماده أفراد مختارون من قبل الناس لفض النزاعات التي يعرضها ذوو العلاقة، بمعنى أن القاضي يضع يديه على الخلاف تلقائيًا وباسم الدولة، بينما يظل المحكم بعيداعن المشكلة حتى تعرض عليه.

ثانيا: لا أثر للإلزام في التحكيم إذ باستطاعة أحد الطرفين أن لا يحضر مجلس الحكم، أما في القضاء فإن للقاضي سلطان السير في المحاكمة بغياب المدعى عليه.

ثالثا: في حال صدور قرار من قبل المحكم، يبقى الخيار للطرفين المتخاصمين في تنفيذ القرار أو إهماله، أو الانتقال إلى محكم ثان فثالث، فالولاية هنا مرهونة برضى المتخاصمين، أما قرار القاضي فله حرمته وقوته الملزمة المؤيدة بسلطة الدولة.

يتبين مما تقدم، أن التحكيم يستمد قوته من تراضي المتخاصمين، بينما يرتكز القضاء على عنصر الإلزام في المحاكمة والتنفيذ كما أسلفنا.

ولا نكران في أنه كانت عند العرب طائفة من المحكمين، اشتهرت بسعة الاطلاع، ونفوذ الفكر،

(*) مستشار محكمة الاستئناف بطرابلس – لبنان.

وقوة الاستنتاج، والتجرد والنزاهة، عرف منهم بنو سهم في مكة، والأقرع بن حابس، وأكثم ابن صيفي، وعبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ، وهند الأيادية، وحذام بنت الريان التي قيل فيها:

إذا قالت حذام فصدقوها

فإن القول ما قالت حذام

على أنه في سياق الكلام على التحكيم والمحكمين في العصر الجاهلي لا محيد عن ذكر رئيس العشيرة الذي كان يفصل بحكم منصبه بين الأفراد التابعين له خشية اضطراب حبل الأمن داخل العشيرة، وكذلك فإن الكهان والعرافين كانوا مفزع كثير من المتخاصمين.

كل هذا إذا لم يتعد الخلاف أفراد القبيلة أو العشيرة الواحدة، أما إذا كان مدار الخلاف أفرادًا من عدة قبائل فالحكم هو السيف وما يستتبعه من حرب وإفناء ودمار، وليست عادة الثأر والتربص للقاتل، أو لأحد أفراد عشيرته بغية إراقة دمه إلا شاهدًا على صورة قائمة من صور الحياة الاجتماعية في عصر الجاهلية..

تطور القضاء

النبي والقضاء:

في مطلع العهد الإسلامي كانت لا تزال تهيمن على الناس عادات الجاهلية، فهناك التحكيم، وهناك الاقتصاص بالذات، وهناك اللجوء إلى الكهان، وكانوا يحتكمون إلى الرسول ﷺ، دون أن يكونوا ملزمين بما حكم به، واستمرت الحال على هذا المنوال، حتى نزلت الآية الكريمة ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ وقيل: إن سبب نزول هذه الآية الحادثة التالية:

اختصم رجلان إلى رسول الله فقضى بينهما، فقال الذي قضي عليه:

ردنا إلى عمر بن الخطاب. فقال عمر: أكذاك؟! قال نعم. قال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضي بينكما. فخرج إليهما مشتملًا على سيفه، فضرب الذي قال: ردنا إلى عمر فقتله! وقد أصبح لحكم الرسول قوة ملزمة، بمقتضى الآية المشار إليها ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ وبذلك تكون صفة جوهرية من صفات القضاء، قد تحققت.

وإذا كان المحكم من قبل غير قادر على إجبار أي من الطرفين بالحضور لديه إلا إذا رضي الطرف الآخر، فقد أصبح الرسول يجبر محكميه، على أن يحضروا بعد نزول الآية.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ

يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ (سورة النور).

- الأولى هي أن حكم الرسول أصبح ملزمًا.

- الثانية أن واحدًا من الخصمين إذا دعي إلى الرسول وجب أن يلبي الدعوة، ولا ضرورة إلى وقوع التراضي بينهما على ذلك من قبل.

«خطوتان لم يكن الناس في زمن النبي يحتاجون إلى أكثر منهما، وبهما تمت صفتا القضاء الجوهريتان، فالخصم يلزمه خصمه بالمسير إلى النبي، والنبي يلزم الخصمين معًا بحكمه» وبذلك تسقط حجة الذين زعموا أن العرب لم يعرفوا القضاء؛ بل إنهم اقتبسوه عن الأمم التي تغلبوا عليها كالفرس والرومان.

التنظيم القضائي: (أول من تولى منصب القضاء)

ليس في المصادر أية إشارة جازمة إلى أول من تولى منصب القضاء، إذ إن النبي حين كان يقضي بين الناس، إنما كان يعمد إلى ذلك بحكم ما تنطوي عليه شخصيته، من سلطة زمنية وروحية، وإذا كان بعض المؤرخين قد ذهبوا إلى القول بأن علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل اللذين ولاهما الرسول على اليمن هما أول قاضيين في الإسلام فلأنهم كانوا يرون أن القضاء بين الناس هو من أكبر مهمات الوالي في الولاية التي يدير شؤونها.

على أن الأمر يختلف في عهد الخلفاء الراشدين، حيث يجمع المؤلفون، على أن عمر بن الخطاب هو أول من عين قاضيًا، ومن هذا القبيل نقرأ في مؤلف الكتاني «ما اتخذ رسول الله قاضيا ولا أبو بكر ولا عمر، حتى كان في وسط خلافة عمر إذ قال لعلي: اكفني بعض الأمور، لأن عليا كان أقضى الصحابة وأعلمهم، ودفع إليه أمر القضاء في بعض الأمور».

وقد سار معاوية على هذا النهج، فتخلى عن القضاء وترك أمره إلى بعض الرجال الذين كانوا على مقدرة في الفقه وأمور الدين، وتمشى سائر الخلفاء الأمويين على هذا النمط، فولوا القضاة على الأمصار.

واختلف الأمر في العصر العباسي، حيث استحدث الخلفاء منصب «قاضي القضاة» الذي تولاه «أبو يوسف» ووكلوا إليه أمر انتقاء القضاة وتعيينهم، وبذلك أصبح للقضاء استقلاله، ومؤسسته الخاصة به.

صلاحية القضاة:

كانت صلاحية القاضي بادئ الأمر مقتصرة على القضايا المدنية والشرعية، ثم أخذت تزداد سعةً وشمولًا حتى أصبحت تتناول كافة الأمور المعروفة

في عصرنا، وحصرها بعضهم في المسائل التالية.

١- النظــر في الخلافــات الحقوقيــة بــين المتخاصمين.

٢- النظر في الدعاوي الجزائية، وهي التي يرفعها المتضررون، أو المتعلقة بالحق العام.

٣- النظر في تنفيذ الأحكام المقضي بها.

٤- النظر في الحجر على السفهاء والمبذرين والولاية على القاصرين.

٥- النظــر في تــزويج الأيــامى، إذا أمــسك أولياؤهن عن تزويجهن.

٦- تصفح أحوال الشهود وتزكيتهم.

٧- النظر في أمور الأوقاف، وتولية المتولين عليها.

وفيما يتصل بالصلاحية المكانية، فقد كان القاضي يولي على مدينة بكاملها، أو ببعض الأمور المحكي عنها آنفا، أو يعهد إليه بالقضاء في جزء من المدينة ولمدة معينة.

وكان أسلوب «القاضي الفرد» هو المعول عليه ولم تشر أمهات الكتب إلى نظام محاكم الجماعة، إلا أن بعض المؤرخين، يذكرون أنه إذا أشكل أمر هام، فإن عددًا من كبار القضاة كان يجتمع لدرسه، وإعطائه الحل الملائم، على غرار ما نعرفه في عصرنا الحاضر، حين تجتمع غرف محكمة التمييز «النقض والإبرام» بكاملها للنظر في توحيد الرأي...

مظاهر القضاء:

كان القاضي يجلس للفصل بين الناس، إما في المسجد، أو في منزله، أو في مكان يعرف بدار القضاء. وكان القضاة يعنون بمظهرهم، ويديرون مجلس الحكم بوقار وهيبة، ويتخذون كتابا لتسجيل الوقائع، وضبط الإفادات، وحجابا لتبليغ أصحاب الدعاوي، كما كانوا يساوون في مجلسهم بين المتخاصمين، وينظرون في الخصومات بترتيب ودون محاباة... وكانوا يتمتعون بحصانة ضد النقل والعزل إلا في الحالات النادرة، ويروى في هذا الصدد أن الخليفة إذا ولى وزيرًا وقاضيًا ثم مات ينعزل الوزير بموته، ولا ينعزل القاضي باعتبار أن الوزير مرتبط بالخليفة فيذهب بذهابه، أما القاضي فمرتبط بالأمة فلذا يستمر في منصبه.

طلب القضاء:

طالب الولاية لا يولى، تلك هي القاعدة التي كانت متبعة في تعيين القضاة، ولذا كان على الخليفة أو وكيله أو قاضي القضاة أن يولي الكفء الصالح، وكان العلماء يتورعون عن طلب القضاء نظرًا، لخطورة المنصب، وعظيم المسؤولية. ومن القصص الرائعة في هذا المجال ما حدث للإمام الأعظم أبي حنيفة، حين طلب إليه أن يقبل منصب قاض

فرفض قائلًا للخليفة المنصور: «اتق الله ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب، ولو اتجه الحكم عليك، ثم تهددتني أن تغرقني في الفرات، أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك، ولا أصلح لذلك»..

فقال المنصور: كذبت، أنت تصلح!..

فقال: قد حكمت لي على نفسك، كيف يحل لك أن تولي قاضيًا على أمانتك وهو كذاب.

ويقال: إن المنصور حبسه ثم عاد فدعاه إلى القضاء وهدده بالضرب فقبل، وعاش بعد القضاء ستة أيام، ويقال: إنه مات في السجن..

أسباب الحكم وأصوله:

لا نرى في ختام هذا البحث أفضل من تثبيت رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، عامله على الكوفة التي تعد بحق دستورًا للقضاء، ونبراسًا للقضاة، يسيرون على ضوئه في مجلس الحكم، وحين تدقيق إضبارة الدعوى... «من عمر ابن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري عامله على الكوفة. أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، وانفذ إذا تبين لك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا ينفذ، وآس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على المدعي واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحا أحل حرامًا، أو حرم حلالًا. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، ثم راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم، الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها، واعمد إلى أحب الأمور إلى الله تعالى، وأشبهها بالحق فيماترى».

واجعل لمن يدعي حقًا غائبًا، أو بينة أجلا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء؛ فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر. والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حد، أو مجربًا عليه شهادة زور، أو ظنينًا في ولاء، أو نسب، فإن الله تعالى تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات والأيمان. وإياك والقلق والضجر والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر، فإنه من يصلح بينه وبين الله – ولو على نفسه –، يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله منه شأنه الله، فما ظنك بثواب الله تعالى في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام.

بقية إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

أجل وأعظم من أن يبدؤوا بالتسليم، وأنهم بلغوا عنان السماء، فإذا أقبلوا على الذين يتولون أمرهم لم يروا إلا كالذي يطل من نجم بعيد في أفق السماء فيراهم ذرة صغيرة تافهة تائهة في فلاة تذروه الرياح يمنةً ويسرةً لا قرار لها.

وإذا كانت النفوس الرذيلة والضعيفة تصاب بعد الارتقاء إلى المناصب بالزهو والتكبر و التجبر والاستكبار على خلق الله تعالى والتعالي عليهم، وتتغير وتتبدل نفسًا بنفس، فإن النفوس الكبيرة والأصيلة لاتتغير ولاتتبدل مهما ارتقت إلى المنازل والوظائف العالية، ولايزيدها المناصب إلا خشوعًا لله تعالى وتواضعًا وهضمًا للنفس لعامة البشر وخاصتهم.

فهذا رسول الله ﷺ - وهو هو في علو قدره وسمو منصبه، فهو المرجعية الوحيدة للمسلمين في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية- بلغ من التواضع وهضم الذات ما لايكاد يصل إليه أحد. فعن أبي مسعود، قال: أتى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رجل فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: «هون عليك؛ فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»[سنن ابن ماجه: ٣٣١٢].

والتواضع كانت السمة البازرة الواضحة الملازمة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل شؤونه من جلوسه وركوبه وأكله وشربه، وشؤونه كلها.

ففي جلوسه وأكله يقول ﷺ: «آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ» [البيهقي في شعب الإيمان: ٥٥٧٢].

وفي ركوبه كان ﷺ يركب الحمار، فعن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله -ﷺ- يعود المريض، ويشيع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار، وكان يوم قريظة والنضير على حمار، ويوم خيبر، على حمار مخطوم برسن من ليف، و تحته إكاف من ليف»[سنن ابن ماجه:٤١٧٨].

وكان ينام على الحصير، وعلى أدم من ليف، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كانت ضجعة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من أدم حشوها ليف» [سنن أبي داود:٤١٤٧].

ويدخل النبي ﷺ مكة فاتحًا في منتهى التواضع وهضم الذات، وهو مطأطئ رأسه حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل. وذلك بعد أن قضى سنين وسنين مطارَدا من مكة يتعرض لأذى أهلها بشتى صوره وأنواعه.

وهذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتولى الخلافة فيظن أصحاب الحي أنه يتغير بعد ذلك، و لايقوم بما كان يقوم به من خدمة الناس. «وكان رجلا تاجرا، فكان يغدو كل يوم إلى السوق، فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وربما كفيها فرعيت له، وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر، فقال: بلى، لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم، فربما قال للجارية من الحي: يا جارية، أتحبين أن

أرعى لك، أو أسرح؟ فربما قالت: ارع، وربما قالت: سرح، فأي ذلك قالته فعل».

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصدر توجيهات صارمة إلى عماله يحذرهم فيها من الإعجاب بالنفس، والتسلط على الرعية، والظلم والاعتداء عليهم وبخسهم حقهم، فيقول: «إن لكم معشر الولاة حقًّا على الرعية، ولهم مثل ذلك، فإنه ليس من حكم أحب إلى الله تعالى ولا أعم نفعًا من حكم إمام ورفقه، وإنه ليس جهل أبغض إلى الله ولا أعم ضرا من جهل إمام وخرقه، وإنه من يطلب العافية فيمن هو بين ظهرانيه، ينزل الله عليه العافية من فوقه».

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يخاطب الأمة: «إني لم أستعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم، وليشتموا أعراضكم، ويأخذوا أموالكم؛ ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم. فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي ليرفعها إلي حتى أقصه منه. فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن أدب أمير رجلا من رعيته أتقصه منه؟ فقال عمر: وما لي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله - ﷺ - يقص من نفسه؟» (الطبقات الكبرى ٣/٢١٣).

إن الذي يتولى منصبًا رفيعًا في مؤسسة من المؤسسات الحكومية أو الخاصة إذا كان ذا بطر، وأشر وخيلاء وانتقام وثأر، ونفاق لم يجلب على نفسه ولا على من تحته من العاملين والموظفين إلا شرا، و وبالا، وعلى المؤسسة دمارا وخرابا يجعلها قاعا صفصفا، لاترى فيها عوجا ولا أمتًا؛ فإنه كما قيل: «شر المال ما لا إنفاق منه، وشر الأزواج التي لا تواتي بعلها، وشر الولد العاصي العاق لوالديه، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد، وشر الملوك الذي يخافه البريء، ولا يواظب على حفظ أهل مملكته، وشر البلاد بلاد بلا خصب فيها ولا أمن». وقيل: «وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة؛ وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار؛ وأشرف الملوك من لم يخالطه بطرٌ؛ وخير الأخلاق أعونها على الورع».

ليعلم كل من يتولى منصبًا من المناصب أنه ظل زائل، وأنه مفارقه أو يفارقه في عشية و ضحاها، ويعود من أخبار «كان»، ومن ذكريات الماضي، ولولا ذلك لما انتقل إليه ممن قبله. و ليعلم أن الذين كانوا من حوله يتوددون ويتصنعون له ويترضونه ويتملقون له بالثناء الكاذب، و المدح بما ليس فيه، و ينمون إليه الأخبار وأقوال الناس فيه، ويتقدمون إليه بالهدايا- سينفضون من حوله، وتغيب عنه بطاقات الدعوة، ويسكت جواله عن الرنين، ويصبح مكانه حيث ينتهي به المجلس، بدلا من الصف الأول، وإذا كل شيء قد طالت إليه يد التغيير والتبديل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

ونعم ما قيل:

ما الناسُ إلاَّ معَ الدُّنيا وصاحبها
وكيفَ ما انقلبتْ يومًا بهِ انقلبوا
يُعظّمونَ أخا الدُّنيا فإن وثبتْ
يومًا عليهِ بما لا يُشتهى وثبوا

* * *

غرور المنصب

ترى الرجل هادئًا وادعًا لينًا هينًا يسلم على المارة من عرفهم ومن لم يعرفهم، ويطمئن على أحوال الناس، ويقضي حاجاتهم، ويحمل كَلَّهم، ويبش إليهم ويهش، يلقاهم بوجه منير، و محيا مشرق، وأسنان باسمة، و وجه طلق بهيج، يرائي الناس أنه أصغرهم وأقربهم إليهم، وأسعاهم فيما يحبونه ويرضون به؛ فهو محبوب عند الله وعند الناس.

ثم يقدر الله تعالى له أن يرتقي إلى منصب أو وظيفة مرموقة فينقلب رأسًا على عقب، و ينسلخ من جلده، ويوسوس له الشيطان بالغرور ويزين له الويل والثبور، ويوقعه في الشرور، ويترفع عن أبناء جنسه، ويتكبر عليهم، ويخمد نور وجهه وبشاشته، وتخبو بساطته وسذاجته، وينظر في عطفيه، ويتسرب إليه الغطرسة والتيه والصلف والإعجاب بالنفس والاستبداد بالأمر، حتى ليظن أنه عمر بن الخطاب في تدبير الأمور، وسياسة ما ولي من شؤون الناس.

إن كثيرًا ممن يعتلون المناصب العالية أو الوظائف المرموقة في عيون العامة والخاصة يصيبهم الإعجاب بالنفس، والغرور بالمنصب والجاه، وسكره وانتشاؤه، فيرى من تحته ومن ليسوا تحته من العاملين والموظفين بعين غير العين التي كان يراهم بها من قبلُ.

تجد كثيرًا من هؤلاء الأقزام - الذين تسلقوا إلى منصب من المناصب على أكتاف غيرهم في مؤسسة من المؤسسات الإدارية أو التعليمية أو الشركات عن جدارة -وهو الأقل- أو غير جدارة - وهو الأكثر- يترفعون عن الناس، وعن أصدقائهم وزملائهم في الماضي، ويتعودون النظر إليهم نظرة ملؤها الاحتقار والاشمئزاز، ولايقيمون لأحد منهم وزنًا، ولا لآرائهم قيمةً وأهميةً.

اللّٰهم إلا إذا تعلق الأمر بمن منحهم هذا الكرسي أو ولَّاهم ذاك المنصب، فيبصبصون له مخافة أن يسلبهم إياه، كالكلب يبصبص بذنبه لصاحبه حتى يرمي له كسرة من خبز بائت.

وإن كثيرًا من أمثال هؤلاء تراهم يمرون في طريقهم بالموظفين العاملين تحتهم، فيمرون مرًّا سريعًا دون أن يبادروهم بالسلام عليهم، وإن سلم عليهم الموظف ردوا عليه ردًّا باردًا، وبطريقة مصطنعة توحي إلى أنهم

(البقية على ص ٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري